الباب الثانى
الدين والثقافة والسياسة

١- الشريعة والدستور.
٢- الإسلام والصراع على السلطة.
٣- مصر وتركيا وإيران.
٤- الاستقطاب المصطنع.
٥- العلمانية والسلفية.
٦- تدنيس المقدس.
٧- الثورة الإسلامية فى إيران بين التحديات الخارجية والمخاطر الداخلية.
٨- الدين ورجال الأعمال.
٩- نقد الوعظ الدينى.
١٠- الفتنة بين السلفيين والعلمانيين.
١١- العدالة والتنمية فى تركيا والمغرب.
١٢- الدين والثقافة والسياسة فى رمضان، عتاب على الإعلام العربى.
١٣- الخليج بين إيران ومصر.
١٤- "وفديناه بذبح عظيم".
١٥- الدولة والثقافة.
١٦- الثقافة والحزب.
١٧- الثقافة الخائفة.
١٨- الصالونات الثقافية للملوك والأمراء.
١٩- المال والثقافة.

١- الشريعة والدستور

كثر الحديث فى الصحف هذه الأيام عن الشريعة والدستور، وهل تترك المادة الثانية فى الدستور "الشريعة الإسلامية أحد المصادر الرئيسية للتشريع" كما هى دون تعديل كما تريد الدولة، أو تبقى وتعدل فى صيغة أكثر تشددا إلى المصدر الرئيسى للتشريع كما يريد التيار الإسلامى والجناح المحافظ فى الإخوان المسلمين، أو تحذف نهائيا كما يريد التيار العلمانى والإخوة الأقباط.

وهى قضية مفتعلة. المقصود بها ملء مادة فى الصحافة، وزيادة الفرقة بين الناس، وإشعال حرب أهلية بين التيارات الفكرية والسياسية الأساسية فى مصر، بين الإسلاميين والعلمانيين، كى يضعف جناحا المعارضة الرئيسيان فى مصر، وبين المعارضة والدولة لإزكاء الخلاف حول موضوع فقهى نظرى صرف لإبعاد النظر عن سياسات الدولة، التبعية والتحالف فى الخارج، والقهر والفساد فى الداخل. تخرج فيها الدولة منتصرة على خصومها السياسيين لتظهر أمام الناس كأنها الحامى للوحدة الوطنية والتى تمثل الاعتدال والتوسط ضد التطرف والعنف.

ليس المقصود هو الظاهر، الخلاف على مادة فى الدستور بل تكشف صراعا مكبوتا على السلطة بين الإسلاميين والعلمانيين وإشعال الحرب بين الإخوة الأعداء. كل فريق يتصور أنه الوريث للدولة الأمنية والنظام السياسى الحالى الذى وصل إلى طريق مسدود متوقفا عن السير، تدب فيه عناصر التفكك الاجتماعى والسياسى،

(*) الاتحاد: ٣ مارس ٢٠٠٧، الزمان: ١٠ مارس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١١ مارس ٢٠٠٧.

وتحول إلى شلل متصارعة وجماعات ومصالح متضاربة. المقصود أيضا كسب الدولة معركة تعديل الدستور ضد خصومها السياسيين. وكلها، المعارضة والدولة، تتملق أذواق الجماهير وقناعتها بالإسلام، عقيدة وشريعة، ويُزايد كل فريق على الآخر، يُزايد الإسلاميون على العلمانيين فى المحافظة على التراث والدفاع عن الهوية وتطبيق الشريعة الإسلامية وإيمان المجتمع. ويُزايد العلمانيون على الإسلاميين فى الحداثة والمدنية والمواطنة. خطاب الفريق الأول موجه إلى الداخل لكسب الأصوات. وخطاب الفريق الثانى موجه إلى الخارج لكسب الدعم الخارجى. وتزايد الدولة على خصومها السياسيين تعبيرا عن الإجماع الوطنى والرؤية الوسطية التى تلم الشمل وتحمى الوحدة الوطنية.

وهى قضية نظرية خالصة لا ينتج عنها أى أثر عملى. فسواء بقيت هذه المادة فى الدستور أم أُلغيت، وسواء ظلت على صياغتها التوافقية الحالية أم عُدلت نحو أحد التيارين المتعارضين فإن الدولة الأمنية باقية. والأمر كله مجرد ذر للرماد فى العيون. فالدولة أول من يخرق بنود الدستور، بقانون الطوارئ والحبس الاحتياطى الذى يتجدد بمجرد إفراج النيابة عن المعتقلين لمدة أسبوعين، بحد أقصى ستة شهور أى اثنا عشرة مرة! ورجال الدولة وهم رجال الأعمال هم بؤرة الفساد. يجمعون بين السلطة والثروة. ويتعاملون مع الخارج قبل الداخل. كل ذلك إشغال للناس وللرأى العام بعيدا عن سياسات الدولة الخارجية، وترك العراق يُذبح على مدى أربعة سنوات، وفلسطين يُصفى دم شعبها منذ الانتفاضة الأولى على مدى عشر سنوات، واحتلال الصومال، ومخاطر تفتيت السودان، وتهديد سوريا وإيران وحزب الله والمقاومة فى لبنان. كما أنه إبعاد لهم عن قضايا القهر والفساد وتزوير الانتخابات والمواجهة مع الإخوان والقضاء والجامعات والنقابات والاتحادات وأحزاب المعارضة وحركات المجتمع المدنى.

إن الشريعة ليست كلا صامتا جامدا ثابتا متحجرا صلبا عبر التاريخ بل هى متجددة متغيرة بتغير الظروف والمصالح، وبتبدل الزمان والمكان. الشريعة تعبير عن واقع كما يتضح ذلك من "أسباب النزول". الواقع يسأل والشريعة تجيب **﴿ويسألونك عن الأهلة﴾**، **﴿ويسألونك عن المحيض﴾**، **﴿ويسألونك عن الخمر﴾**، **﴿ويسألونك عن الأنفال﴾**، والإجابة **﴿قل﴾**. ومعظمها إجابات عملية تهدف إلى تحقيق مصالح الناس، الأهلة لمعرفة المواقيت، والمحيض أذى يوجب الاعتزال عن النساء، والخمر بها مضار للصحة والعقل والمال. ولا جواب عن أسئلة نظرية لا ينتج عنها أثر عملى مثل **﴿ويسألونك عن الروح﴾**. وهناك أسئلة انتهى عصرها مثل السؤال عن الأنفال والغنائم. فلا توزع غنائم الحرب، فى حالة الانتصار اليوم، سلاحا وعتادا وإماء على المحاربين بل تصبح ملكا للدولة. والأسرى، نساء ورجالا، تحميهم المواثيق والمعاهدات الدولية. والشريعة متغيرة بتغير الزمان بدليل "الناسخ والمنسوخ". فالأحكام الشرعية متطورة بتطور الزمان كما هو الحال فى تحريم الخمر الذى تدرج كما هو معروف، من الضرر إلى عدم شربه وقت الصلاة إلى اجتنابه كلية. وأحيانا يتجاوز الواقع والزمان أحكام الشريعة مثل أحكام الغنائم والإماء والصيد. وقد أوقف عمر العمل بحد السرقة عام المجاعة كما هو معروف. وأوقف سهم المؤلفة قلوبهم. وأفتى محمد عبده بجواز أخذ فوائد التوفير نظرا لانخفاض العملة عبر الزمان، وأفتى آخرون بإيقاف تعدد الزوجات كحق مطلق استنادا إلى تعليقه على شرط مستحيل وهو العدل بينهن. ورأى آخرون إبقاءه بعد إخطار الزوجة الأولى. وشكلت لجان لإعادة تقنين الشريعة طبقا لأحوال العصر، وإعطاء صياغات جديدة لقانون الأحوال الشخصية بدلا من توقف المطلقات والأرامل واللاتى يهاجر أزواجهن إلى مناطق جذب العمالة دون إخطار زوجاتهن. كل منهن تحمل على ذراعيها وليدها أو تجر فى أذيالها أبناءها وبناتها.

ولا الدساتير أيضا ثابتة، ولا شريعة نابليون التى اعتبرها الطهطاوى متفقة فى روحها مع الشريعة الإسلامية أيضا ثابتة إلى يوم الدين. لذلك يدرس طلاب الحقوق تاريخ القانون لبيان تطوره عبر العصور. وتتغير القوانين الحديثة من عصر إلى عصر، ومن شعب إلى شعب، ومن ثقافة إلى ثقافة فى القانون الجنائى والقانون المدنى، وقانون المرافعات. والقانون التجارى يعكس موازين القوى الاجتماعية والتركيب الطبقى للمجتمع، والقانون الدولى العام والخاص تسيطر عليه القوى الكبرى فى صياغاته وأهدافه، ويعبر عن موازين القوى الدولية فى كل عصر. وطالما أدخلت تعديلات على كل الدساتير كملاحق لها. بل قد تتغير بتغير النظام السياسى من ملكى إلى جمهورى، والنظام الاقتصادى من رأسمالى إلى اشتراكى. والدستور المصرى الحديث ليس ثابتا بل أعيدت صياغته عدة مرات منذ دستور ١٩٢٣ إلى دستور ١٩٧١.

وتختلف مدارس القانون فى فهم طبيعة القانون بين أكثرها محافظة وأشدها تحررا. فالمدرسة المحافظة تعتبر القانون تعبيرا عن الإرادة الإلهية. وهو عام شامل مطلق مثلها لا يتغير بتغير الزمان والمكان. وتراه المدرسة العقلية تعبيرا عن العقل الخالص. والعقل أيضا ثابت لا يتغير، العقل البديهى البسيط. وتراه المدرسة الطبيعية تعبيرا عن الطبيعة الإنسانية وبنيتها الفطرية. وهى أيضا ثابتة لا تتغير. فالإنسان إنسان منذ الخلق حتى البعث. ويبدأ التصور الاجتماعى المتغير للقانون ابتداء من المدرسة الاجتماعية والتطورية التى تعتبر القانون تعبيرا عن نظام المجتمع. يتطور بتطور المراجل التاريخية للمجتمعات. وتاريخ التشريع ونظام القرابة شاهد على ذلك. ومنها من يعتبر القانون انعكاسا للصراع الطبقى فى المجتمع وتوازن القوى فيه كما هو الحال فى مصر. لذلك تتغير التشريعات ونظم التعليم والاقتصاد فى كل جيل عدة مرات، بل إن هذا القانون ذاته يخضع لتأويلات

وتفسيرات متعددة طبقا لفهم القانون عند المدعى العام والدفاع والقاضى. وصراع التأويلات هو صراع قوى ينعكس فى طريقة فهم النصوص. لذلك نشأ صراع بين حرف القانون وروح القانون بين نفس المدرستين المحافظة والتحررية.

والشريعة ليست كلا واحدا ورأيا واحدا واتجاها واحدا بل هى متعددة الآراء والاتجاهات بين المذاهب الفقهية الأربعة الشهيرة. ويختار كل شعب المذهب الذى يتفق مع خصوصيته. اختارت مصر الشافعية، الوسطية بين الحنفية والمالكية، وإن كانت جزءا من المنظومة المالكية للمغرب العربى، وفى الأحوال الشخصية حنفية. وأصبحت اليوم فى السلوك اليومى حنبلية تحت تأثير التيار المحافظ فى شبه الجزيرة العربية، وكرد فعل على انهيار الدولة الحديثة فى مرحلة ما بعد الاستعمار، واستبعاد الحركة الإسلامية من المشاركة السياسية بعد الثورات العربية الأخيرة على مدى أكثر من نصف قرن، وفشل الأيديولوجيات العلمانية للتحديث، الليبرالية والقومية والماركسية.

ولا يعنى تطبيق الشريعة، تطبيق الحدود أى قانون العقوبات. فلا واجبات بلا حقوق. وإذا كان من الواجبات تطبيق الأحكام الشرعية أوامر ونواهى فمن الحقوق إعطاء كل فرد حقه فى بيت المال، فى الغذاء والكساء والإسكان والعلاج والتعليم والعمل والمشاركة فى ثروات البلاد قبل تطبيق حد السرقة أو حد الزنا. فلكل حكم سبب وشرط ومانع. فلا يُطبق حد السرقة بدافع الجوع والحرمان وبعموم البلوى إذا كان الكل سارقا. وهناك فرق بين السرقة من أجل البقاء والسرقة لنهب الأموال وثروات البلاد. ولا تتعلق الشريعة فقط بالأحوال الشخصية بل بالأحوال العامة، ليس من الباب الضيق، من غرفات النوم، بل من الباب العريض، من النظام السياسى والاجتماعى. نظامها السياسى شورى ضد الاستبداد بالرأى وفردية القرار. يقوم على البيعة وليس على الانقلاب العسكرى أو الوراثة

والتوريث. ونظامها الاقتصادى يقوم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج وعلى التوزيع العادل للدخل القومى طبقا لطبيعة العمل وحده. ونظامها القانونى يقوم على الحسبة والرقابة على الأسواق وجهاز الدولة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية حتى عند السلفيين. ونظامها القضائى يقوم على استقلال القضاء. مهمتها الذب عن البيضة أى الدفاع وتقوية الثغور والحفاظ على استقلال البلاد الوطنى ووحدة الأمة وتنمية مواردها وإعمار الأرض. والخروج على الحاكم الظالم واجب شرعى بعد استيفاء الشروط، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصيحة لأولى الأمر، واللجوء إلى قاضى القضاة.

هناك فرق بين الجد والهزل، بين تحقيق المصالح العامة وإثارة المشاكل المفتعلة لملء الفراغ السياسى، والإيهام بمشاركة الشعب فى تعديل الدستور. إن المصدر الأول للتشريع هو المصالح العامة، تحقيق أكبر قدر من المصلحة لأكبر عدد ممكن من الناس. فالمصلحة أساس التشريع كما قرر بذلك كل الفقهاء وعلى رأسهم الشاطبى والطوفى إمام الحنابلة. وما يحدث اليوم من تعديلات للدستور إضرار بالمصالح العامة، وهى أساس الشريعة والدستور فى آن واحد.

٢- الإسلام والصراع على السلطة

يكثر الحديث عن الإسلام فى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية. وليس المقصود منه عرض الإسلام فى ذاته أو بيان حلوله لبعض المشكلات والأزمات الطاحنة التى تمر بها المجتمعات العربية والإسلامية بل المقصود من كل خطاب، على الرغم من تنوع الخطابات، الصراع على السلطة. فالسلطة هدف الجميع، حكومة ومعارضة.

تستعمل الدولة أى النظام الحاكم أو الحكومة بالتعبير الشعبى الإسلام لصالح البقاء فى الحكم والاستمرار فى السلطة. فالإسلام فى الصحف هو الإيمان ومضمونه العقائدى الغيبى أو الشعائرى، السمعيات وليس العقليات، النظريات وليس العمليات. وهو الاعتدال ضد التطرف، والتسامح ضد العنف، والوحدة الوطنية ضد الفرقة، وبناء المساجد والكنائس على حد سواء، دون تمييز لفريق على فريق، وعيد ميلاد السيد المسيح أجازة رسمية مثل المولد النبوى سواء بسواء. وتقيم الدولة مسابقات تحفيظ القرآن. وتساهم فى إقامة الأعياد والموالد للأولياء. وتحافظ على التراث، وتطبعه وزارة الثقافة. وتقوم الدولة من خلال وزارة الأوقاف والشئون الدينية بذلك. ومشيخة الطرق الصوفية تابعة لرئاسة الجمهورية مثل جامعة الأزهر ومكتبة الإسكندرية. وتُبقى على الإسلام دينا رسميا للدولة بالرغم من اعتراضات العلمانيين بأن الدولة لا دين رسمى لها لأنها تمثل جميع المواطنين بصرف النظر عن

(*) الاتحاد: ٢٤ مارس ٢٠٠٧، الدستور: ٢٢ مارس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١ أبريل ٢٠٠٧.

إيمانهم. ونُبقى على المادة الثانية التى تنص على أن الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع حتى لا تزايد الحركات الإسلامية عليها. وهى تعلم أن كل ما يُسن من قوانين فى البلاد مثل قانون الطوارئ، والأحكام العرفية، وقانون مكافحة الإرهاب، كلها معارضة للشريعة الإسلامية التى تؤكد حرمة المسلمين، أعراضهم وأموالهم. وهى تعلم أيضا أن كل ما يحدث فى البلاد من احتكار تجارة الحديد والأسمنت، وتلاعب بالأسعار، ومضاربات فى العقارات، وبيع أصول مصر، مصانعها، وجامعاتها وبنوكها وربما قناتها بدعوى الخصخصة والدخول فى عصر العولمة والمنافسة واقتصاد السوق إنما هو ضد الشريعة الإسلامية التى تحرم الاحتكار لأن المحتكر ملعون، والتلاعب بالأسواق، وبيع الركاز أى كل ما هو فى باطن الأرض كالمعادن أو ثابت لا يتحرك لا ينقل فى الأسواق. وهى تمنع تأسيس أحزاب مثل الإخوان أو الوسط لأنها تقوم على أساس دينى مما يؤدى إلى الفتنة الطائفية وقسمة أبناء الوطن الواحد إلى طائفتين. وهى تعلم أن الأحزاب "الدينية" أحزاب مدنية تقول بأن السلطة للشعب بناء على الاقتراع العام. وتقول بالتعددية السياسية. وليس الإسلام إلا الإطار المرجعى العام كالأيديولوجيات السياسية، الليبرالية والاشتراكية والقومية. والمحك هو البرنامج الحزبى.

والإسلام فى أيدى الإسلاميين ليس المقصود به الإسلام فى ذاته بل الإسلام من أجل الوصول إلى السلطة، الإسلام فى معترك الصراع السياسى. فهم المحافظون على تراث الأمة العريق من الاندثار والضياع، والداعون إلى التواصل معه. ولا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. وهم المدافعون عن تطبيق الشريعة الإسلامية ضد القانون الوضعى الذى يلاقى تحته المواطنون أشد ألوان العذاب فى المكاتب الحكومية وفى أجهزة الدولة. **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾**، **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله**

فأولئك هم الفاسقون». وهم المدافعون عن الهوية ضد التغريب، والمتمسكون بالأصالة دون الحداثة، والمحافظون على روح الأمة الخالدة ضد إغراءات الدنيا. وهم استمرار للخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين، وتابعى التابعين إلى يوم الدين. هم خلفاء الأمة. والعلماء ورثة الأنبياء. شعاراتها سلطوية إقصائية أحادية الجانب. "الإسلام هو الحل" مع أنه لا يوجد حل واحد لأى قضية. "الإسلام هو البديل"، والبدائل متعددة. ولا يوجد بديل واحد إلا فى أوقات الهزيمة بحثا عن الخلاص وتعلقا بطوق النجاة. "تطبيق الشريعة الإسلامية" للثورة على القوانين الوضعية وبالتالى الثورة على الدولة من أجل الحكم بما أنزل الله. هدف هذه الشعارات هو تقويض ما هو قائم وليس تغييره إلى ما هو أفضل والبناء عليه. فالهدم يأتى قبل البناء. والبناء يأتى بعد الهدم. الإسلام هنا وسيلة للوثوب إلى السلطة. وهو حق مشروع لكل القوى السياسية فى البلاد. فليست السلطة حكرا على أحد. بل يتم تداولها طبقا لصناديق الاقتراع والانتخابات الحرة مهما تغيرت مواد الدستور إلى البقاء فى السلطة أكثر من دورتين ثم إلى مدى الحياة.

والدين فى أيدى العلمانيين يقوم على تشويه متعمد له من أجل إبعاد خصومهم الإسلاميين فى الصراع معهم على السلطة عندما تضعف الدولة ويصبح النظام السياسى تابعا للخارج وقاهرا للداخل، كى يكون أحد الجناحين، الإخوان أو الشيوعيون، هم السلطة البديلة القادمة بعد أن تتفتت السلطة القائمة. فالدولة الإسلامية دولة دينية وليست دولة مدنية. يحكمها رجال الدين باسم الله ونيابة عنه. هى دولة ثيوقراطية. إمامها خليفة الله فى الأرض مثل ولاية الفقيه. قضى عليها الغرب فى عصوره الحديثة، واستبدل بها الدولة المدنية، وفصل الدين عن الدولة، والسلطة الدينية عن السلطة السياسية، والكنيسة عن الدولة. ولما شاعت ثقافة الغرب، وعم نموذجه، وتم إسقاطه على باقى الثقافات والشعوب، كره الناس

الإسلام وخافوا منه. فمن يريد العصر الوسيط، وتحالف الكنيسة مع الملكية كنظام سياسى ومع الإقطاع كنظام اجتماعى؟ وهل يرضى الأقباط أن يعيشوا فى كنف الدولة الإسلامية كأهل ذمة؟ وأهل الذمة فى الاستشراق الغربى الذى ذاع وانتشر مواطنون من الدرجة الثانية. أقلية وسط الأغلبية. تؤخذ منهم الجزية عن يد وهم صاغرون. والرأى العام العالمى، وأقباط المهجر جزء منه، يروجون لمثل هذه الأحكام الخاطئة طلبا لتأييد الغرب لحقوق الأقليات، واستعداء للدول الكبرى والمنظمات الدولية خاصة الأمم المتحدة التى نصبت نفسها مدافعة عن الأقليات، وتصدر القرارات الدولية بمعاقبة الدول التى تنتهك حقوقها باسم الإسلام. والإسلاميون لا يسلمون بتداول السلطة. إذا وصلوا إليها فإنهم باقون فيها إلى الأبد كما أعلن مرة رئيس جبهة الإنقاذ فى الجزائر بعد نجاح الإسلاميين فى الانتخابات البلدية أن هذه آخر الانتخابات. وما بعد الحق إلا الباطل. فأخاف الناس، وأثار الجيش، فانقلب عليهم، انقلاب على انقلاب، وسلطة على سلطة. يخلط الإسلاميون بين الدين والسياسة. ويستعملون الدين لصالح السياسة دون كشف ذلك أيضا فى منطق الدولة من أجل إقصاء الخصوم. والدين تجربة شخصية فى حين أن السياسة فضاء عام. الدين علاقة الإنسان بينه وبين ربه. والسياسة علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. الدين لله والوطن للجميع. والإسلام ضد حرية الفكر. لا يقبل الحوار مع الخصوم. يكفرهم ويستبعدهم ويزيحهم ويقصيهم بل ويصفيهم جسديا، ويستعمل كل وسائل العنف من أجل تخليص المجتمع من الفرق الهالكة باسم الفرقة الناجية. يحكمون بمفردهم ولا يدخلون فى جبهات وطنية مع باقى القوى السياسية، الليبراليين والماركسيين والقوميين. فقد اغتيل حسن البنا فى العصر الليبرالى. وأُعدم سيد قطب فى العصر القومى الاشتراكى لممارسة العنف وتكوين التنظيمات السرية لقلب نظام الحكم. وقد لا يطيق فريقان إسلاميان بعضهما البعض. كل فريق يريد

الحكم بمفرده كما هو الحال فى السودان بين الإخوان فى الحكم والجبهة القومية فى المعارضة. والشريعة الإسلامية هى فقط الحدود، قطع الأيدى والرقاب والجلد والرجم والصلب والتعليق على جذوع الأشجار والحريم وتعدد الزوجات والطلاق وعدم مساواة المرأة بالرجل والتخلف ومعاداة العلم والمدنية إلى آخر ما يقوله الاستشراق التقليدى. ولا فرق بين ما تروجه الدولة ضد الإسلاميين وما يروجه العلمانيون ضدهم. فالعدو واحد وهم الإسلاميون مع أن الدولة والعلمانيين باعتبارهم أحد أجنحة المعارضة الرئيسيين للمعارضة رفاق نضال.

إن تشويه الإسلام من أبنائه فى أتون الصراع السياسى ضد العلم وضد الوطن. فليس من مصلحة الدولة ولا العلمانيين ولا الإسلاميين تشويه الإسلام وتسليمه لأعدائه لصالح الصراع السياسى على السلطة. السلطة زائلة وثقافة الأمة باقية. الأصلح للجميع حفاظا على تراث الأمة الذى يكوّن الرافد الرئيسى فى ثقافتها السياسية التعامل مع الإسلام فى ذاته وكيف أنه قادر على الدفاع عن مصالح الأمة واستمرارها فى التاريخ والدخول فى تحديات العصر: تحرير ما تبقى من الأراضى المحتلة فى فلسطين وكشمير وسبته ومليليه وما زاد عليها فى العراق وأفغانستان والشيشان كما يريد الوطنيون جميعا، وتحرير المواطن من كل صنوف القهر السياسى والاجتماعى تحقيقا لشعار "لا إله إلا الله"، والجهر بالحق، وقول كلمة حق فى وجه سلطان جائر كما يريد الليبراليون، وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس وجعل العمل المصدر الوحيد للقيمة بدلا من هذا التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء وتهريب الأموال والاتجار بالأرزاق كما يريد الماركسيون، والدفاع عن وحدة الأمة ضد مخاطر التجزئة والتفتيت العرقى والطائفى، وتحقيق التنمية المستقلة فى أمة متكاملة فى اقتصادها بين الثروات وعائدات النفط والعقول والسواعد كما يريد القوميون الوحدويون، والدفاع عن

الهوية ضد التغريب والتميع كما يريد الإسلاميون، وتجنيد الجماهير وحشد الناس الذى تعانى من غيابه جميع فرق المعارضة. ليس من مصلحة أحد تشويه الإسلام من أجل الصراع على السلطة بل من مصلحة الجميع إبراز قدرة تراث الأمة على تحقيق مصالحها الوطنية وأن يكون وعاء للوحدة الوطنية التى يجتمع فيها كل الفرقاء على الحد الأدنى من المصالح العامة على مستوى العمل، مع أكبر قدر ممكن من التعددية السياسية وحق الاختلاف على مستوى النظر.

٣- مصر وتركيا وإيران

فى عصر التكتلات السياسية والاقتصادية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وحلف شمال الأطلنطى والاتحاد الأوروبى ومجموعة الثمانية، يقف الوطن العربى وحيدا مجزءا إلى أقطار ومهددا بالتقسيم إلى دويلات طائفية، شيعية وسنية، وإسلامية وقبطية، أو عرقية، عربية، كردية، بربرية، زنجية، ثم إشعال الحروب بينها حتى تتحول إلى فتات تابع للتكتلات الكبرى. وحاولت دول أخرى إقامة تكتلات مماثلة فى أمريكا اللاتينية، النافتا، وفى أفريقيا، الاتحاد الإفريقى، وفى الوطن العربى، الجامعة العربية، وفى العالم الإسلامى، منظمة المؤتمر الإسلامى، وفى عالم النفط، منظمة الأوبك، وفى جنوب شرق آسيا، الآسيان، وأخيرا مجموعة الدول الأفريقية الأسيوية الأربع وعشرين ومركزها أندونيسيا، وماليزيا، وإيران، وتركيا، ومصر، ونيجيريا لتنشيط دول مؤتمر باندونج وتحويله من مستوى الوجدان إلى مستوى الفعل بعد ما يزيد على نصف قرن. ومع ذلك ظلت ضعيفة صورية خطابية. لا تستطيع الصمود أمام التكتلات الكبرى. وليس لها ثقل سياسى لأنها خالية من الثقل الاقتصادى الذى تستطع به منافسة التكتلات الكبرى فى السوق طبقا لحرية المنافسة وفى عصر العولمة.

فهل تستطيع مصر والوطن العربى مع دول الجوار، تركيا وإيران، تكوين

(*) الاتحاد: ٣١ مارس ٢٠٠٧، الدستور: ٢ أبريل ٢٠٠٧، الزمان: ٢ أبريل ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٨ أبريل ٢٠٠٧.

تكتل سياسى اقتصادى يحميها من التجزئة والتفتت والتقسيم ويجعلها قادرة على الصمود أمام التكتلات الكبرى، وربما تكوين بؤرة لبداية قطب ثان فى أفريقيا وآسيا قادر على أن يواجه القطب الأول فى عالم متعدد الأقطاب؟

إن التاريخ المشترك بين مصر وتركيا ظل أكثر من خمسة قرون منذ فتح سليم الأول مصر عام ١٥١٧. وظلت درة الخلافة العثمانية كما كانت الهند فى عصر الاستعمار درة التاج البريطانى. وبسبب نظام السخرة ونظام الالتزام والتسلط التركى ومركزية الباب العالى، والنظام الملّى وقهر شعوب البلقان بدأ ضعف الخلافة العثمانية. ومع ذلك حاول محمد على إحياءها من مصر بتأسيس دولة قوية جديدة أكثر استنارة من دولة الخلافة. وظلت العلاقة بين مصر وتركيا حتى القرن العشرين إبان حركة التحرر الوطنى ضد الاستعمار البريطانى فى الحكم والمصاهرة.

وظلت نفس العلاقة المتينة بين مصر وإيران، أقوى دولتين فى العالمين السنى والشيعى. بينهما صلات رحم بين الأسرتين الحاكمتين، الشاه ومحمد على، وأواصر صداقة بين الشعبين. جمعهما التراث الاسلامى خاصة الشعر والتصوف، الفردوسى والرومى، والخيام وإقبال. وسبقت الثورة المصرية فى ١٩٥٢ بقيادة الضباط الأحرار، الثورة الإسلامية فى إيران بقيادة الأئمة الأحرار. واستلهمت تأميم القناة فى ١٩٥٦ من تأميم مصدق النفط فى ١٩٥٤، وهروب الشاه بعد مغادرة ملك مصر والسودان البلاد. وظلت الثورة المصرية تؤيد زعماء الثورة الإيرانية بالمال والسلاح بعد عودة الشاه عن طريق العراق ضد العدو المشترك، أمريكا وإسرائيل. ثم بدأت القطيعة بين البلدين بعد انقلاب الثورة المصرية على نفسها وتحولها إلى ثورة مضادة أثناء الجمهوريتين، الثانية فى السبعينيات على مدى عقد من الزمان، والثالثة فى الثمانينيات حتى الآن على مدى ثلاث عقود من الزمان. ومازالت مستمرة بالبقاء فى السلطة مدى الحياة أو بمخططات التوريث وتعديلات الدستور وتأييد الولايات

المتحدة وإسرائيل. بل تحالفت الثورة المضادة مع الولايات المتحدة فى سياساتها الأمنية فى الوطن العربى، وفى غزوها للعراق، وعقدها معاهدة صلح مع إسرائيل، وهى مازالت تحتل أراضى ثلاث دول عربية.

إن القومية العربية ليست أيديولوجية سياسية مغلقة بل مفتوحة على دائرة أوسع هى العالم الإسلامى. والعروبة ليست بأب أو أم أى مفهوما عرقيا. إنما العروبة هى اللسان. فكل من تكلم العربية فهو عربى. وقديما تمت التفرقة بين العرب العاربة والعرب المستعربة. وربما كل العرب خارج شبه الجزيرة العربية وصحراء الشام الامتداد الطبيعى لها عرب مستعربة. فإعادة صياغة حدود القومية العربية بحيث تشمل دول الجوار غير العربية التى أخذت الإسلام دون اللسان تفترضه طبيعة التكتلات الكبرى الحالية، وتتجاوز بعض أوجه النقص فى ممارسات النظم السياسية التى حكمت باسم القومية العربية فى مصر وسوريا والعراق.

إن تكتلا سياسيا اقتصاديا جديدا بين مصر وتركيا وإيران يضم أكثر من مائتى مليون نسمة فى نفس حجم سكان أوروبا، وأمريكا، واليابان. وتستطيع مصر أن تستدعى الوطن العربى معها، فهى بؤرته. والعالم الأفريقى معها فهى جزء منه. وتستطيع تركيا وإيران أن تجلب معها أواسط آسيا بما فى ذلك باكستان وأفغانستان، وجنوب شرق آسيا، أندونيسيا وماليزيا. فيعاد إحياء حركة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا من جديد، قلب باندونج بعد نصف قرن. الإمكانيات السكانية والصناعية بلا حدود. تعتمد على النفط والصناعات المدنية والعسكرية، والمنطقة الاستراتيجية والعمالة، السواعد والعقول، والأسواق، والاتصال البحرى والبرى، والإرث التاريخى المشترك، والثقافة الإسلامية الجامعة بين الشعوب. ومياه النيل ودجلة والفرات قادرة على جعل الزراعة مكتفية بذاتها بدلا من الصراع حولها

بين سوريا والعراق من ناحية وإيران من ناحية أخرى، وحول مياه النيل بين الدول المطلة على حوضه. يستطيع هذا التكتل الجديد أن يحافظ على عروبة فلسطين، واستقلال دولة فلسطين، واسترداد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. كما يستطيع أن يقدم كل وسائل العون والحماية لدول الخليج التى هى مفترق الطرق بين العرب وإيران، والجسر الثقافى بين السنة والشيعة، وإحياء إعلان دمشق بدلا من المظلة الأمريكية الإسرائيلية. وبالتالى ينتهى التناقض بين السنة والشيعة، بين العرب وإيران. كما تبتعد تركيا عن إسرائيل. وقد بدأ. وتستقل عن الولايات المتحدة الأمريكية. وتبدع نموذجا جديدا للتطور والتنمية بعد النموذج الغربى الذى اختارته الثورة الكمالية فى ظروفها التاريخية الأولى أثناء ضعف الخلافة ونهايتها. كما تجد مصر عونا جديدا لها بدلا من الاعتماد الكلى على الغرب والولايات المتحدة فى تنميتها وقضاياها الوطنية. كما يساعد التكتل الجديد على تحرير العراق واسترداد استقلاله ووحدة شعبه وأرضه، وعلى الدفاع عن سوريا ضد مخاطر التهديد الإسرائيلى الأمريكى. بل يساعد على انصهار فرقاء النضال والخصوم السياسيين فى إطار وطنى واحد، فى لبنان والمغرب العربى والسودان والصومال، ونزع فتيل التوتر فى شبه الجزيرة العربية، وحماية الأمن القومى الخليجى من الإحساس بالخطر الإيرانى النووى والمذهبى.

والصحوة الإسلامية الحالية عنصر مشترك فى مصر وتركيا وإيران بأجنحتها المختلفة السلفية والإصلاحية، الليبرالية والاشتراكية. وليس فقط التاريخ المشترك على مدى آلاف السنين منذ ظهور الإسلام بل أيضا الثقافة المشتركة التى توحد بين الشعوب. وكلاهما يوفران الحد الأدنى من التضامن بينها. لقد منعت تركيا مرور القوات الأمريكية فوق أراضيها لغزو العراق من الشمال، واستعمال القاعدة الأمريكية انجرليك لضرب العراق. والآن تبتعد تدريجيا عن إسرائيل، والتعاون معها

فى الصناعات العسكرية، وتأييد سياساتها الاستيطانية التوسعية. فقد وجدت فى العرب البديل عن الغرب، وفى مصر البديل عن إسرائيل.

يستطيع هذا الثلاثى الجديد أن يحل باقى المشاكل العالقة بين تركيا والعرب مثل لواء الاسكندرونة على الحدود السورية التركية، وقضية الأكراد على الحدود العراقية التركية الإيرانية، وقضية التقسيم العادل لمياه دجلة والفرات بين العراق وسوريا وتركيا فى عصر تشتد فيه أزمة المياه، وربما الحرب القادمة فى المنطقة هى حرب المياه. كما يستطيع هذا التجمع حل مشاكل الجزر الإماراتية بما يحقق حسن الجوار على ضفتى الخليج فى إطار من محافظات التكامل فى مناطق النزاعات الحدودية التى تركها الاستعمار من أجل بث الفرقة بين الدول العربية والإسلامية. وفى هذه الحالة لا تخاف مصر من المد الإسلامى إذ يصبح الإسلام أحد عناصر التعاون والترابط والحياة المشتركة. وينتهى الخوف من الخلاف السنى الشيعى أو المناطق الحدودية مثل عربستان، وحول تسمية الخليج العربى أو الفارسى. فالإسلام تجمع حضارى وليس جغرافيا. كما يحل النزاع بين سوريا وتركيا حول حزب العمال الكردستانى، وبين مصر وإيران حول التوجهات السياسية من أجل عودة العلاقات بين البلدين بعد انقطاعها على أكثر من ربع قرن وهو ما لا يحدث فى العلاقات الدولية، وكأن إيران تمثل خطرا على مصر أكثر من إسرائيل. كما ينتهى خوف إيران من ضربها من الولايات المتحدة الأمريكية عبر المنطقة العربية. وخوف الخليج من الخطر النووى المذهبى الإيرانى.

إن تحقيق كومنولث بين مصر وتركيا وإيران يعيد التوازن إلى المنطقة بدلا من ميل العرب نحو الغرب الأمريكى ومناهضة إيران له، وميل العرب إلى الصلح مع إسرائيل فى مبادرة السلام العربية وخارطة الطريق وإنشاء دولة فلسطين فى ١٩٦٧، وميل إيران إلى تحرير فلسطين من البحر إلى النهر، فلسطين ١٩٤٨ وفلسطين

١٩٦٧. وهو الذى يحمى المنطقة من الصراع المذهبى والعرقى وإقامة تجمع سنى فى آسيا وأفريقيا لمحاصرة المد الشيعى فى العراق. وهو الذى يعيد المعركة إلى جبهتها الأصلية فى فلسطين وحماية الأمة من الهيمنة الغربية الأمريكية بدلا من تغييب المعركة والانحراف بها إلى الداخل بين المذاهب والطوائف والأعراق.

وكما أن العصر هو عصر التكتلات الكبيرة فإنه أيضا عصر الاستراتيجيات الكبرى التى يضعها الخيال السياسى ومسار الأمم فى التاريخ.

٤- الاستقطاب المصطنع

بالرغم من حالة التميع السائدة فى السياسة الخارجية العربية يشتد الاستقطاب فى السياسة الداخلية. الاستقطاب فى الخارج شىء طبيعى بين العرب من ناحية وإسرائيل والولايات المتحدة من ناحية أخرى. أما الاستقطاب فى الداخل فى حياة المواطنين فإنه مصطنع، يفرغ الطاقة، ويحيد عن الهدف. هو استقطاب مزيف لخلق معارك وهمية بدلا من المعارك الطبيعية التى حيدتها نظم الحكم فى السياسة الخارجية فى قضايا الحرب والسلام بالنسبة للقضية الفلسطينية، والتبعية والاستقلال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. ويصل حد الاستقطاب فى الداخل إلى حد الحروب الأهلية كما حدث فى لبنان والجزائر بين الإخوة الأعداء. فريق يكفّر فريقا، وفريقا يخوّن فريقا. فشُق الصف الوطنى وضاعت وحدة الأوطان. واختفت ثقافة الحوار. وأصبحت الأوطان مهددة ليس فقط بقوى التفتيت الخارجية وإثارة النعرات الطائفية والعرقية بل أيضا بقوى التفتيت الداخلية صراعا على السلطة بين فرقاء الوطن الواحد. الاستقطاب الخارجى استقطاب رئيسى تتحدد طبقا لقوانين الصراع فيه حياة الأمم والشعوب فى حين أن الاستقطاب الداخلى لا نفع منه فى قضايا مفتعلة. وبلغة الأيديولوجيا، الاستقطاب الخارجى تناقض رئيسى، والاستقطاب الداخلى تناقض ثانوى. والرئيسى له الأولوية على الثانوى. الأول استقطاب عملى يغير مسار الشعوب

(*) الاتحاد: ١٤ أبريل ٢٠٠٧، الدستور: ١٩ أبريل ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٢ أبريل ٢٠٠٧.

ويتحدد به مستقبل الأمم. فى حين أن الثانى استقطاب نظرى فقهى لا ينتج منه أى أثر عملى. ولا يحقق تقدما لشعب بل يساهم فى تأخره. ولا يحل مشكلة فى حياة الناس بل يزيد فى تهميشها.

ومظاهر الاستقطاب كثيرة. أهمها الاستقطاب الدينى: حجاب أم سفور؟ شريعة إلهية أم اختيار إنسانى، جبر شرعى أم حرية شخصية؟ وبطبيعة الحال تنقسم الآراء بين فريقين، محافظين وليبراليين، تقليديين وتجديديين، سلفيين وعلمانيين. ويتحزب الناس. وينتصرون لذا الفريق أو ذلك. يزايد فريق فى الدين والإيمان. ويزايد الفريق الآخر فى الحداثة والعصرية. ويدخل الإحراج الشخصى والخوف الاجتماعى كحجج وبراهين. فلا أحد يجرؤ على عصيان الشريعة. ولا أحد يريد التنازل عن حرياته الشخصية. والله فى القلب وليس وراء الأحجبة، فى السرائر وليس فى المظاهر. والفضيلة فى السلوك وليست فى الغطاء.

توحيد الآذان من مؤذن حسن الصوت من خلال أجهزة الإعلام الحديثة أم الإبقاء على تعدديته بأصوات كريهة، رجالاً وأطفالا، تتداخل فيما بينها نظرا لقرب المساجد بعضها من بعض، وعلو مكبرات الصوت والمنارات. ويختلف الناس بين الإبقاء على التعدد فى الآذان حتى ولو أدى ذلك إلى صراخ وصخب وصم للآذان. فلكل مسجد آذانه. ولكل مؤذن صوته، وهى عامة الناس، وبين التوحيد المتناغم إبقاء على الغاية وهى اليقظة مع حسن الوسيلة وهو الصوت الواحد المتناغم. وهو رأى النخبة والدولة.

استعمال مكبرات الصوت أم الصوت الطبيعى؟ يصر دعاة الإيمان على استعمال مكبرات الصوت فلا فرق بين الإيمان والإعلام. ومكبرات الصوت أكثر قدرة على إيقاظ الوسنان وغفلة النائم. ولماذا لا تستعمل التكنولوجيا فى الدين؟

ويتبارى الأغنياء فى شراء أحدث الأجهزة الإليكترونية من مضخات الصوت من المحسنين والمتصدقين وفعلة الخير لنيل حسن الثواب فى الآخرة بعد الثراء فى الدنيا. ويرى دعاة الحياء والاطمئنان أن الصوت الطبيعى أقرب إلى القلب ومدعاة للخشوع من تضخيمه بالآلات الحديثة كما يتم فى الأفراح والموالد وافتتاح المحلات التجارية. ويفترق الناس بين من يرى أن الإيمان إذاعة وانتشار ودعاية وإعلان وإعلام، وبين من يرى أن الإيمان أقرب إلى التقوى والقلب والصمت والاطمئنان الداخلى دون حاجة إلى صخب خارجى.

توحيد خطب المساجد يوم الجمعة أم تركها متنوعة طبقا لاختيار الأئمة؟ من يرى التوحيد هم رجال الدين الرسميون ووزراء الأوقاف والشئون الدينية الذين يودون الإبقاء على خطب المساجد تحت رقابة الدولة حماية للبلاد من التطرف والشطط، وإدخال الدين فى السياسة، واتقاء شر معارضة الحكومة بما للمساجد من أثر فى تكوين أذهان العامة. وكما أفرزت المساجد فقهاء السلطان والحيض والنفاس فإنها أيضا أفرزت فقهاء الأمة ومصالح الناس والثوار ضد الظلم والقهر والفساد والاحتلال. وينقسم الناس بين مؤيد لتوحيد الخطبة وهم رجال الدولة مع بعض البسطاء من العامة وبين المبقين على تعددها. فكل بيئة لها مصالحها، وأهل مكة أدرى بشعابها، وهى المعارضة.

كيف يحدد أول يوم العيد، بالعين المجردة أم بالحسابات الفلكية؟ العين المجردة يؤيدها النص القرآنى **﴿حتى يتبين لكم الخط الأبيض من الخط الأسود﴾**، والحسابات الفلكية أدق وأضبط من العين التى تختلف قوة وضعفا والتى قد يمنعها الغمام والضباب والأتربة من حسن الرؤية. كيف يتم تحديد أول الشهر القمرى والعالم الإسلامى ممتد من أقصى مشارق الأرض ومغاربها. من المغرب إلى الصين. كما انتشر فى نصف الكرة الغربى أيضا. وقد تصل فروق التوقيت إلى أربع وعشرين

ساعة أى إلى يوم وليلة كاملين. ويتحزب الناس إلى كل من الرأيين. ويدب الخلاف بين المسلمين، وتبادل الاتهامات بالتخلف والتقليد أو بالجرى وراء العلم الحديث، وتوحيد ما لا يُوحد وإلا لتعددت وقفة عرفات.

حلال أم حرام؟ فى كل خطوة وفى كل فعل وأمام كل شىء حتى فقدت الأشياء براءتها الأصلية، وفقد المسلمون الثقة بالطبيعة الخيرة، وتهيبوا العالم المملوء بالشرور والمحرمات حتى استولى عليه الأعداء وسيطروا عليه. الحلال والحرام معروف فى الشرع. وما سكت عنه الشرع فهو فى مرتبة المباح أو العفو. فلم السؤال والتضيق عما سكت عنه الشرع وتركه فسحة ورحمة؟ هذا ما فعله بنو إسرائيل بالسؤال فيحرمه الله تدريبا لهم. فضاقت عليهم الشريعة فلفظوها مثل السؤال عن لون البقرة ونوعها وشكلها وحجمها. **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم﴾**. ويفترق الناس فريقان. الأول مع التشديد مزايدة فى الإيمان، والثانى مع التخفيف رحمة بالناس.

وهكذا يتم تفرع الاستقطابات الدينية، وتتحول من الاستقطاب الدينى إلى الاستقطاب الاجتماعى: فساد الرهبان، وعلاقاتهم الجنسية الحرة من أجل إثارة الشقاق بين المسلمين والأقباط، الزواج المختلط بينهما، التنصير أو الأسلمة، تحول النصرانى إلى الإسلام أو المسلم إلى النصرانية، إباحة الطلاق أو تحريمه فى المسيحية حتى يختلف الناس بين الإباحة والتحريم، وتقع النزاعات الطائفية فى الدول التى تخلو من النزاعات العرقية والمذهبية.

وقد يتجاوز الاستقطاب المستوى الدينى الاجتماعى إلى المستوى الدينى السياسى فى عدة موضوعات أخرى. الإبقاء على مادة الشريعة المصدر الرئيسى للتشريع فى الدستور أم إلغاؤها؟ إبقاؤها يرضى المؤمنين حتى ولو كانت صورية فارغة من أى مضمون. فما يقع فى البلاد من فساد وقهر فى الداخل وتبعية

وتحالف مع أعداء الأمة فى الخارج ضد الشريعة. وإلغاؤها يرضى العلمانيين. فالدستور للجميع وليس للمسلمين فقط. وبالبلاد أقباط لا تطبق الشريعة الإسلامية عليهم طبقا للشريعة ذاتها، ويحتدم الخلاف، وتنقسم الأمة على موضوع شكلى وإن كانت له دلالة رمزية. وتخاطر بوحدة عنصرى الأمة المسلمين والأقباط. وينفر الناس من الشريعة إذا كان المقصود منها تطبيق الحدود دون إعطاء الحقوق. والشريعة واجبات وحقوق. فلا رجم إلا إذا توفرت للشباب إمكانيات الزواج المبكر. ولا قطع ليد إلا إذا توفرت له أسباب الحياة الكريمة من عمل وكسب ومسكن وتعليم وعلاج أى الحاجات الأساسية للمواطن.

دولة دينية أم دولة مدنية؟ وهو استقطاب مقنع يخفى صراعا سياسيا بين الحكومة والإخوان. الحكومة تتهم الإخوان بالقول بالدولة الدينية وهو مضاد للدستور الذى يمنع من تأسيس أحزاب سياسية على أسس دينية حماية للوحدة الوطنية. والإخوان يتهمون الحكومة بالدولة المدنية التى تطبق القانون الوضعى الذى قد يتعارض أحيانا مع الشريعة الإسلامية. والإخوان يقولون بالدولة المدنية، وتدخل فى معترك الحياة السياسية كحزب مدنى، الانتخابات والبرلمان. وتطالب بتعديل الدستور حفاظا على الحريات العامة وقواعد الديموقراطية وتداول السلطة كما تفعل باقى أحزاب المعارضة. والحكومة تمارس دور الدولة الدينية باستعمال الرموز الدينية فى أجهزة الإعلام وجهاز الدولة وصفات الرئيس المؤمن.

سنى شيعى؟ وكلما اشتدت المقاومة العراقية فى العراق وغرقت القوات الأمريكية فى رماله كما غرقت من قبل فى أوحال فيتنام تحول الصراع بين المقاومة والاحتلال إلى صراع بين السنة والشيعة. وبدلا من الحديث عن مآسى الاحتلال يتم الحديث عن الخطر الشيعى على العراق والخليج وعلى أهل السنة بالإجماع. وكما تتزعم إيران المذهب الشيعى تتزعم السعودية أو باكستان المذهب السنى. وتقام

أحلاف جديدة على أساس مذهبى سنى شيعى، وليس على أساس وطنى، استقلال وتبعية. ومع الخطر الشيعى الإيرانى يأتى الخطر النووى الإيرانى وكأن الخطر الإسرائيلى الأمريكى لم يعد هو الخطر الأول.

ويزيد الاستقطاب الدينى والاجتماعى والسياسى الاستقطاب الرياضى بين الأندية الرياضية خاصة فرق كرة القدم. وتخرج المظاهرات فى الشوارع تحمل الأعلام الحمراء ليس دفاعا عن الاشتراكية، والأعلام البيضاء ليس من أجل السلام. وتملأ أخبار النجوم والرياضة الصحف والمجلات أكثر من صور الشهداء وأبطال المقاومة. وإن كان لابد من الاستقطاب فى الداخل فلا أحد يتحدث عن الاستقطاب بين القاهر والمقهور، بين الظالم والمظلوم، بين الأغنياء والفقراء، بين دعاة التوريث وأنصار تداول السلطة.

إن الاستقطاب ضد الحوار. كما أن التوحيد ضد الخلاف. وبدلا عن الاستقطاب الحوار بين وجهات النظر المتعددة. الاختلاف حق شرعى. وحله بالحوار الوطنى، والاجتماع على حد أدنى من المصالح الوطنية ضد مخططات التجزئة والتقسيم. ولماذا تقع الأوطان بين المطرقة والسندان، مطرقة عوامل التفتيت العرقى والمذهبى والطائفى من قبل القوى الخارجية وعوامل الاستقطاب الداخلى بفعل القوى الداخلية؟ ولماذا تصبح الثقافة الوطنية ضحية بين عجز أبنائه وجهل علمائه؟

٥- العلمانية والسلفية

بعد تخلى مصر عن دورها الإقليمى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى، وانكماشها، وانكفائها على ذاتها، والسعى وراء لقمة العيش، وضمور الخيال السياسى، ونسيان الدوائر الثلاث: العربية، والأفريقية الأسيوية، والإسلامية التى تطبقها إسرائيل الآن باحتلالها مركز مصر فى أفريقيا وآسيا. أصبحت تركيا وإيران أهم دولتين إقليميتين حول مصر، شمالا وشرقا. تتفاوض معها قوى الهيمنة الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية، على قضايا الوطن العربى فى فلسطين والعراق بل والعالم الإسلامى فى أفغانستان.

وكما تحتاج مصر إلى ثقتها بنفسها وبقدرتها على التأثير فى محيطها وفى مجالها الحيوى تحتاج تركيا وإيران أيضا إلى إعادة بنائهما من الداخل. تحتاج تركيا إلى إعادة النظر فى تاريخها الحديث منذ إلغاء الخلافة فى ١٩٢٣ وتبنى النموذج الغربى. كما تحتاج إيران منذ ثورتها المعاصرة فى ١٩٧٩ إلى إعادة تكوين جبهتها الداخلية حتى تكون ركيزة تحديها لقوى الهيمنة الخارجية.

كان الضابط مصطفى كمال على حق أولا فى القيام بثورته ضد نظام الخلافة الذى أدى فى رأيه إلى احتلال اليونان لتركيا حتى أبواب أنقرة، وقد كانت تركيا من قبل باسم الخلافة على أبواب فيينا. وكان على حق ثانيا فى رؤيته مظاهر القهر الداخلى فى تركيا للمعارضين القوميين العرب والأرمن وباقى

(*) الاتحاد: ٢٣ يونيو ٢٠٠٧، الدستور: ١٢ يوليو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٤ يونيو ٢٠٠٧.

الأقليات بعد أن كان نظام "الملة" من قبل قادرا على لم شمل أقطار الخلافة كما فعل ميثاق المدينة من قبل فى جمع العرب حول الدين الجديد. وكان على حق ثالثا فى القضاء على مظاهر التخلف من شعوذة وخرافة وسحر وجهل وسيطرة رجال الدين، وتبنى النموذج الغربى القائم على العقلانية والإنسانية والتقدم والمجتمع المدنى والمؤسسات الديموقراطية والحداثة. وقد كانت هذه قيم الإسلام فى عصره الذهبى والتى أقام على أساسها العمران كما يشهد بذلك إبداع المسلمين فى العلوم الرياضية والطبيعية، وآثارهم فى الأندلس، غرناطة وأشبيلية وقرطبة وطليطلة. واستانبول مدينة الألف مئذنة مثل القاهرة.

وبعد انقضاء أكثر من ثمانية عقود من الزمان على الثورة التركية بدأت المراجعة فى الاختيار العلمانى التركى. فلا هى بقت ضمن العالم الإسلامى ولا هى انضمت إلى الاتحاد الأوروبى. تعثر الاقتصاد التركى، وأصبحت تركيا عضوا بحلف شمال الأطلنطى. وعلى أرضها القاعدة العسكرية الأمريكية "انجرليك" والتى تمثل قاعدة للعدوان على الوطن العربى كما حدث فى العراق، وربما يتكرر فى إيران. وظهرت حركات إسلامية أصولية أو تحديثية تبين أن ارتباط تركيا بالإسلام لم يتوقف وكما بدا ذلك فى ظاهرة أربكان وحزب "رفاه" ثم حزب "الفضيلة" ثم حزب "العدالة والتنمية" الحاكم الآن.

ومع ذلك مازالت العلمانية اختيارا مقدسا بنص الدستور والجيش هو المدافع عنها. وأجيال جديدة تربت على هذا الاختيار مازالت قادرة على النزول إلى الشوارع والتجمهر والتحزب دفاعا عنها ضد أى مساس بها أو حتى قراءة جديدة لها بعد مرور أكثر من ثمانية عقود من الزمان على الاختيار الأول. أصبحت العلمانية الآن تهدد نفسها، وتهدم قيمها بنفسها، وتتخلى عن مبادئها. تحولت إلى علمانية سلفية تدافع عن الماضى أكثر مما ترنو إلى المستقبل.

أصبحت علمانية متوحشة شرسة، تتوعد وتهدد، وتنذر بالانتقام من الإسلاميين كما كان الحال فى نهاية عصر الخلافة. صارت علمانية مطلقة مع أن العلمانية اتجاه نسبى، لا يمتلك الحقيقة المطلقة. صارت علمانية إقصائية، تستبعد الاتجاهات الأخرى حتى ولو كانت علمانية نسبية، إنسانية، ثقافية، إصلاحية أو حتى تراثية، أى البحث عن جذور العلمانية فى الثقافة والتراث والتاريخ. والدليل على ذلك قضية الحجاب الذى تحجر عليه العلمانية وتقصيه مع أن العلمانية تقوم على الحرية والاختيار الشخصى واحترام الرأى الآخر. فالحجاب أو السفور كلاهما جزء من الحرية الشخصية.

انتقلت تركيا فى ١٩٢٣ من خلافة إسلامية إلى خلافة علمانية دون المرور بمرحلة ليبرالية متوسطة تتحول فيها تركيا من المطلق إلى النسبى. وهو أكثر اتفاقا مع روح العلمانية. كان الاختيار العلمانى لجمعية الاتحاد والترقى والقومية الطورانية مطلقا مضادا للعثمانية دولة الخلافة. فانتقلت تركيا من مطلق إلى مطلق دون الأخذ بالاختيار الثالث وهو الإصلاح الذى دافع عنه الأفغانى، التغير من خلال التواصل، التجديد دون التقليد سواء كان التقليد للقدماء أو للغربيين المحدثين. وهو ما حدث أيضا فى روسيا فى نفس الفترة أو قبلها بست سنوات فى الثورة الاشتراكية فى ١٩١٧ عندما تحولت روسيا من مطلق القيصرية إلى مطلق الاشتراكية، من نسق مغلق إلى نسق مغلق مضاد، دون المرور بمرحلة ليبرالية نقدية لتتحرر من ذهنية المطلق. فانهار الاختيار الثانى فى ١٩٩٠ كى تمر بمرحلة ليبرالية ديموقراطية جديدة تكون أساسا لأى اختيار آخر رأسمالى أو اشتراكى. وهو ما حدث فى أوروبا الشرقية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عندما تحولت من المطلق الكاثوليكى إلى المطلق الماركسى مباشرة دون المرور بمرحلة متوسطة هى النسبية الليبرالية والعلمانية المتعددة. كان يحمى الخلافة فى تركيا، جند السلطان.

والآن يحمى العلمانية الجيش الوطنى. وفى كلتا الحالتين، سيطرة العسكر.

وبرز حزب العدالة والتنمية ليشق طريقا وسطا بين حزب الرفاة و"الأربكانية" والرومانسية الإسلامية التى قرأها البعض عودا إلى نظام الخلافة وبين العلمانية القحة التى ترفض الحوار، وتتمسك بالاختيار القديم مهما تغيرت الظروف وكأن الزمن لم يعد له حساب. يناضل من أجل تعددية سياسية وهى روح العلمانية، ومن أجل العودة إلى الشعب وسؤاله عن الاختيارات الرئيسية للبلاد مثل انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام وليس من خلال البرلمان. والديموقراطية روح العلمانية. ويحاول الاستقلال عن الهيمنة الأمريكية كما حدث فى رفض مرور القوات الأمريكية على أراضيه لغزو العراق من الشمال فى حين قرر بعض الحكام العرب كقرار فردى الاشتراك مع أمريكا بأشكال متعددة فى غزو العراق. ويبتعد عن إسرائيل، ويلغى اتفاقيات التسليح معها ويتقارب إلى العرب خاصة مصر وسوريا، ويساهم فى عمليات التنمية والبناء فى عديد من الأقطار العربية بما فى ذلك مصر.

وتشهد تركيا بفضل حزب العدالة والتنمية أكبر معدل فى خطط التنمية والتصنيع والتحديث. فقد كانت سباقة فى ذلك منذ "التنظيمات" التى كانت سائدة فى القرن التاسع لتحديث المجتمع والدولة والمؤسسات. تصدّر أكثر مما تستورد، وتصنّع أكثر مما تزرع.

وهى الآن تعى موقعها الجغرافى السياسى كجسر بين الشرق والغرب، بين آسيا وأوروبا كما وعته مصر قديما بالإضافة إلى أفريقيا. فتركيا ملتقى قارتين، ومصر ملتقى ثلاث قارات. وفتح السلطان سليم الأول مصر فى ١٥١٧ وامتدادها إلى المغرب العربى حتى الجزائر كان يضم أفريقيا إلى آسيا وأوروبا. وتقوم بدور تركيا ومصر فى آن واحد. وهو ما حاوله محمد على من جديد انطلاقا من مصر لتجديد

المشروع العثمانى. وانضمامها إلى الاتحاد الأوروبى إضافة لها وليس خصما منها لتوسيع حضورها فى أوروبا، ولتخفيف التوتر بين الإسلام والغرب، والتخوف من هجرات العرب والمسلمين إلى أوروبا، وانتقال العمالة من جنوب البحر الأبيض المتوسط إلى شماله، وتغير الهوية الأوروبية إلى هوية إسلامية أو على الأقل إسلامية أوروبية بعد أن أصبح الإسلام هو الدين الثانى فى أوروبا بعد المسيحية ووجود ما يقرب من أربعة عشر مليونا من المسلمين، الأتراك والعرب فى أوروبا، ووجود جيلين من الأبناء والأحفاد من مواليد أوروبا وليسوا من المهاجرين كما كان فى الآباء والأجداد.

إن بين العرب والأتراك تاريخ مشترك منذ أكثر من ألف عام منذ دخول الإسلام إلى تركيا، والشعب التركى إلى الإسلام. فُتحت القسطنطينية. واستمرت دولة الخلافة أكثر من خمسة قرون. لها جوار مشترك مع سوريا والعراق.

ينقصها حل المشكلة الكردية ليس فقط فى تركيا بل حلها أيضا فى شمال العراق وسوريا وروسيا وأرمينيا فى إطار من الاستقلال الذاتى، وحدود مفتوحة، وهوية ثقافية وقومية فى إطار الدول الوطنية القائمة. وهو نفس النموذج المطروح لقضية الصحراء فى المغرب وجنوب السودان ودارفور. وهو النموذج السويسرى الذى يضم ثلاث قوميات وثقافات ولغات، إيطالية وألمانية وفرنسية، فى إطار من نظام سياسى موحد ودولة واحدة. وهو نموذج ميثاق المدينة فى أول الرسالة. وبقت قضية لواء الاسكندرونة التى يمكن حلها فى إطار محافظات التكامل بين تركيا وسوريا مثل حلايب وشلاتين بين مصر والسودان، وكل مناطق النزاعات الحدودية من مخلفات الاستعمار بين الأقطار العربية حتى تتآكل فكرة الحدود السياسية لصالح وحدة الشعوب على طرفى الحدود. فالهوية من التاريخ والثقافة والحضارة قبل أن تكون من الجغرافيا، السهول والأنهار والمياه.

أما المياه، مياه دجلة والفرات فهى مصادر طبيعية للتنمية المشتركة بين تركيا وسوريا والعراق لإقامة السدود وزراعة الأراضى أسوة بالدول المطلة على وادى النيل، وتجنبا لمدها إلى إسرائيل.

والأهم من ذلك تغيير صورة التركى فى الذهن العربى، تلك الصورة التى رسما الاستشراق وأجهزة الإعلام الغربية والأعمال الأدبية والفنية حتى أصبح تعبير "رأس تركى" يعادل المتعصب الجاهل. وهى صورة الحريم والإماء والسبايا وتعدد الزوجات والسراى التى تثور عليها الحركات النسائية.وهى صورة السيطرة والقهر واستغلال الفلاحين، صورة الباشا والأغا "أهلا يا بكوات".

إنها مسئولية العلماء لإعادة كتابة التاريخ العثمانى لتركيا بعيدا عن تصورات المستشرقين وأجهزة الاستعمار الغربى التى كان الهدف منها القضاء على "الرجل المريض" من أجل تقطيع جثته وتوزيعها كأسلاب بين دول أوروبا الناهضة. إنها مسئولية القوميين والمؤرخين العرب لتجاوز الخلافات الأيديولوجية إلى البحث التاريخى الموضوعى، مساعدة للعرب والأتراك. فليست مشانق دمشق للقوميين العرب فى ١٩١٣ هى كل التاريخ. ولا الملتزم التركى الذى يضرب الفلاحين بالسياط هى كل العلاقات بين تركيا والعرب. وما الفرق بين مآذن الجامع الأزرق فى استانبول ومآذن القلعة فى القاهرة؟

٦- تدنيس المقدس

عُرفت الثقافة العربية، إسلامية أو مسيحية أو يهودية، بتقديس المقدس وليس بتدنيسه وإلا كان الجزاء القتل وهدر الدم، دم الكافر المرتد وإنكار ما علم من الدين بالضرورة، وتمزيق القرآن ودهسه بالأقدام. وفى لغتنا الكتاب المقدس، والروح القدس، والوادى المقدس. فالمقدس هو الكريم والطاهر والشريف. والقدوس اسم من أسماء الله الحسنى. والروح القدس، والملك القدوس، والوادى المقدس، والأراضى المقدسة. والتقديس فعل إنسانى، يحافظ على القيمة مثل التسبيح **﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**. ومع المقدس ألفاظ لها نفس الدلالات مثل القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والكعبة المشرفة، ورمضان المعظم، والدين الحنيف. وعند الأصوليين، النفس أو الحياة المقصد الأول من مقاصد الشريعة. الحياة والموت أفعال إلهية وليست بشرية. فالله هو الذى يهب الحياة. وهو الذى يقرر لكل أجل كتاب. والقصاص حياة، وحياة الطفل والمرأة والشيخ **﴿وإذا الموءودة سُئلت بأى ذنب قتلت﴾**.

وقد يكون الاقتتال بين حماس وفتح نهاية القاع التى لم تظهر بعد، إزهاق الروح، والكفر بالمقدسات، وتجاوز الخطوط الحمراء، إراقة الدم الفلسطينى بيد الفلسطينى. وقد ضحى عبد الناصر بالوحدة المصرية السورية، أول تجربة وحدوية عربية فى التاريخ الحديث لأن العربى لا يريق دم العربى، وأمر بإرجاع الطائرة

(*) الاتحاد: ٣٠ يونيو ٢٠٠٧، الدستور: ٥ يوليو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١ يوليو ٢٠٠٧.

المحملة بالجنود المصريين لمساندة اللاذقية التى كانت مازالت تهتف بالوحدة ضد الانفصاليين الانقلابيين المتآمرين فى دمشق.

فكيف يتعارض الرمح الذى تمثله حماس، والدرع الذى تمثله فتح؟ كيف تتناقض المقاومة والسلطة، الداخل والخارج، القتال والتفاوض، الثورة والدولة؟ يد تقاتل ويد تصافح كما فعلت الثورة الفيتنامية وهى تقاتل على الأرض وتفاوض فى باريس مع العدوان الأمريكى على مدى خمس سنوات على نهاية الاحتلال. ليست فتح بيتان، وليست السلطة حكومة فيشى حتى إذا كانت حماس تمثل ديجول والمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى لفرنسا. وماذا لو اقتتلت فصائل المقاومة فى العراق فيما بينها ضد الاحتلال الأمريكى سواء قبل الانسحاب أو بعده، وسال الدم العراقى بيد العراقى؟ إنه تدنيس المقدس مرة أخرى، والكفر بالمقاومة بعد الإيمان بها، وتمنى عودة قوات الاحتلال للفصل بين المتقاتلين. وهى الذريعة التى يحتج بها الاحتلال للبقاء فى العراق. وماذا لو تم الاقتتال بين فصائل المقاومة فى الصومال قبل انسحاب قوات الاحتلال الأثيوبى أو بعدها مما يعطى ذريعة للاحتلال وممثليه فى الداخل لإضفاء الشرعية عليه حماية للسكان الآمنين ودفاعا عن وحدة الأوطان؟ وهى نفس المأساة فى السودان عندما يريق السودانى دم السودانى باسم الصراع بين الشمال والجنوب أو بين الخرطوم ودارفور. وهى نفس الجريمة فى لبنان عندما يفجر لبنانى أو عربى ليقتل رئيسا للوزراء أو نائبا فى البرلمان أو مصنعا أو متجرا أو منزلا فوق رءوس قاطنيه.

إن الثورة لا تكون فى الحكم إلا بعد النصر طبقا لشعار المقاومة "ثورة حتى النصر". هذه هى تجارب الثورات المنتصرة فى الصين وفيتنام وجنوب أفريقيا ومصر. أتى هوشى منه إلى الرئاسة بعد انتصار الثورة الفيتنامية. وأصبح نيلسون مانديلا رئيسا لجمهورية جنوب أفريقيا بعد هزيمة الحكم العنصرى. وأصبح سعد

زغلول رئيسا لوزراء مصر بعد ثورة ١٩١٩، وعبد الناصر رئيسا لجمهورية مصر بعد ثورة ١٩٥٢. ثم يتم التحول من فورة الثورة إلى عقل الدولة. وقد أطلق بن جوريون النار على الهجرات اليهودية غير الشرعية إلى إسرائيل بعد إعلان تأسيس الدولة فى ١٥ مايو ١٩٤٨ لأن الدولة هى التى تقوم الآن بتنظيم الدخول والخروج من البلاد.

إن السلطة فى الدولة المحتلة مثل فلسطين والعراق وأفغانستان لا تكون إلا فى الوحدة الوطنية بين فصائل المقاومة وفرقاء النضال، والاجتماع على الحد الأدنى فى برنامج العمل الوطنى وفى مقدمته انسحاب المحتل. أما السلطة تحت الاحتلال فهى سلطة دون سلطة، النصر قبل الثورة، القصر قبل القبر، العربة أمام الحصان.

إن تدنيس المقدس، وعبور الخط الأحمر وهو إراقة دم الفلسطينى بيد الفلسطينى، يجعل الفلسطينى يكفر بكل شىء، بمقاومته وبدولته، بفتح وحماس، وبالسلطة الوطنية. فلا فرق بين الوطنى الفلسطينى والعدو الصهيونى فى استباحة الدم الفلسطينى. وقد يكون المقاتل الفلسطينى الذى يحكم على مقاتل فلسطينى آخر بالإعدام وينفذ فيه الحكم ويسحله بالطرقات أشد عداوة للفلسطينى من قتل العدو الإسرائيلى للفلسطينيين الأبرياء بهدم المنازل وقصف الأحياء بالصواريخ أو التصفية الجسدية لنشطاء المقاومة وقياداتها.

وقد يكفر العرب بكل شىء، بالوطن فالولاء للخارج والتعاون مع الأجنبى أكثر أمنا. ويكفوا عن تأييد المقاومة باليد وباللسان وحتى بالقلب. وقد يكفرون بالقومية لحساب الهويات البديلة، الطائفية المذهبية والعرقية لحماية نفسه من خلال الانتماء إلى الجماعة الصغرى بعد أن انقضت الجماعة الكبرى. ويكفرون بالإسلام وبالدين وبالإيمان وبالمسلمين. ففتح جذورها إسلامية إخوانية، وحماس

انتماءاتها إسلامية إخوانية، والإسلام قد حرم الاقتتال بين المسلمين، وجعل دم المسلم وعرضه وماله حراما. ويكفرون بكل تاريخهم وماضيهم وحركاتهم الوطنية السابقة وبتكاتفهم مع كل حركات الاستقلال الوطنى فى العالم الثالث وبكل إنجازاتهم فى الخمسينيات والستينيات ورموزها، فرانز فاتون، اميه سيزيه، نكروما، سيكوتورى، جيفارا، كنياتا، موجابى ...الخ. ولماذا لا يعترفون بالصهيونية ويفاوضونها ويصالحونها، ولماذا لا يتحالفون مع قوى الاستعمار القديم والجديد مادامت النهاية واحدة، إراقة الدم الفلسطينى الذى أصبح بلا ثمن؟

إن تدنيس المقدس هو الذى أدى بإلقاء صور ياسر عرفات رمز الثورة الفلسطينية على الأرض ودهسها بالأقدام، وهو ما لم تفعله إسرائيل. وهو الذى أدى إلى سيطرة حماس على غزة، وفتح على الضفة الغربية، وإسرائيل تسيطر عليهما معا بما فى ذلك القدس.

إن الاقتتال بين فصائل المقاومة يحدث عادة بعد انتصار الثورة كما حدث فى الجزائر وفى تونس وفى الثورة الاشتراكية فى ١٩١٧ فى روسيا وليس قبلها. وكيف يقع الاقتتال على قسمة الغنائم والنصر لم يحدث بعد؟ حينئذٍ يكون نصرا فى الهواء. وتكون السلطة وهمية، والاقتتال على وهم. انقسمت الدولة قبل أن تقوم. حماس فى غزة، وفتح فى الضفة. ووقعت حرب أهلية قبل الاستقلال. ويتحقق التقسيم مبكرا للدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس تطبيقا لمخطط التقسيم للوطن العربى كله. حماس تتهم فتح بالعمالة والخيانة، وفتح تتهم حماس بالانقلاب على السلطة الشرعية والخروج على القانون. والجامعة العربية تؤيد فتح، ولا تدين حماس، حرصا على وحدة الشعب الفلسطينى وسلامة أراضيه تحت الاحتلال. والعرب وإسرائيل والغرب يؤيدون السلطة ويعدون بفك الحصار وبوجود الشريك الفلسطينى أخيرا للتفاوض على مشاريع التسوية، خارطة الطريق أو

مبادرة السلام العربية، تمهيدا لضرب حماس فى غزة واستئصال المقاومة، العقبة الكئود أمام التسوية. وتعيد إسرائيل احتلال غزة، وتسقط فتح فى الضفة لأن الأخ لم يأت لمساعدة أخيه وسلمه إلى الجلاد مادام قد نال الاعتراف الدولى بشرعيته حتى ولو كانت تحت الاحتلال. اغتالت إسرائيل الشيخ ياسين وهى الآن تصفى أنصاره. ثم تدور الدائرة على فتح عندما يُعرض عليها ما رفضته من قبل عندما كانت تمثل كل فلسطين. وينتهى مَثل العرب "أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب".

ويعود تاريخ العرب من جديد أيام الفتنة الكبرى بين على ومعاوية. ويتساءل الفقهاء: هل تجوز إمامة المفضول وهو معاوية مع وجود الأفضل وهو علىّ؟ هل تجوز إمامة فتح وهى المفضول مع وجود حماس وهى الأفضل؟ ويفتى مالك بالجواز حقنا لدماء المسلمين. القلوب مع علىّ، والمصالح مع معاوية. الشرعية مع علىّ، والقوة مع معاوية. الثورة مع علىّ فى الحجاز، والدولة مع معاوية فى دمشق.

هل تدنيس المقدس إرهاصات لفلسطين الجديدة. حكومة يقودها المستقلون الوطنيون، وتبقى فتح وحماس فى المعارضة، تمثل الرقابة الشعبية والثورة حتى النصر؟ أين حيدر عبد الشافى ليعيد سيرة سوار الذهب ورئيس المجلس العسكرى الثورى فى موريتانيا؟ فالسلطة ليست فى القصر بل فى التاريخ.

٧- الثورة الإسلامية في إيران

بين التحديات الخارجية والمخاطر الداخلية

فاجأت الثورة الإسلامية في إيران العالم كله باندلاعها في فبراير ١٩٧٩ بعد أن ظنها الغرب وعلى رأسها الشاه التابع لأمريكا والغرب واحة أمان. تراكمت فيها محاولات الثورات السابقة وتعذيب الثوار في السجون على أيدي السافاك وتأميم مصدق البترول في ١٩٥٤ الذي كان الملهم لتأميم ناصر لقناة السويس في ١٩٥٦، وهروب الشاه وعودته بعد الانقلاب الذي دبرته الولايات المتحدة الأمريكية ضد مصدق. وكان أول عناصر قوتها زعامة قوية لا تساوم ممثلة في الخميني الذي كان ناصر يساعده وهو في ملجأه في النجف في العراق، يساعد مجاهدي خلق، عصب الثورة وقوتها الضاربة، ضد نظام الشاه ثم في منفاه في باريس من خلال شرائط التسجيل التي يخاطب بها شعب إيران. وكان الإسلام الثوري هو عنصرها الثاني، أيديولوجية شعبية نابعة من تاريخ إيران. تحمل آمالها في الحرية والاستقلال والدفاع عن الهوية الوطنية. لا خلاف عليها بين الطبقات الاجتماعية. وجدت الأيديولوجيات الثورية الأخرى داخلها مثل الماركسية وحركة تحرير إيران ومجاهدي خلق، وفدائي خلق، طلبة وعمال ومثقفين وجنود كما كان الشيخ إمام يغني "عمال وفلاحين وطلبة". والعنصر الثالث جماهير شعبية بالملايين في الشوارع تستولي على الكلية الحربية رمز نظام الشاه. تسد الطرقات وتملأ الملايين.

(*) الاتحاد: ٢٨ يوليو ٢٠٠٧، الدستور: ٢٦ يوليو ٢٠٠٧، العربي الناصري: ٢٩ يوليو ٢٠٠٧.

ثم طعنها العرب فى الخلف. غزاها النظام العراقى السابق بعد عامها الأول وهى تتحدى الولايات المتحدة بوازع منها وتشجيع على الغزو لإضعاف القوتين العسكريتين الإيرانية والعراقية، حماية لإسرائيل من الجبهة الشرقية بعد أن اتسع عمقها الاستراتيجى من سوريا إلى العراق إلى إيران بعد عزل الجبهة الجنوبية فى مصر بعد كامب ديفيد فى ١٩٧٨، ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٩، والإعلان المستمر على أن حرب ١٩٧٣ هى آخر الحروب، وأن السلام اختيار استراتيجى للعرب. وقطعت مصر العلاقات السياسية معها إلى الآن ما يقرب من ثلاثين عاما وكأنها أخطر على العرب من إسرائيل التى عقدت الصلح معها واعترفت بها وتبادلت السفراء معها تحت وهم تشجيع الحركات الإسلامية فى مصر والوطن العربى، وأن يتكرر النموذج الإيرانى فى الثورة الإسلامية فى باقى أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى بإيحاء من الولايات المتحدة وإسرائيل. والثورة الإسلامية هى الناصرية مركبة على الإسلام، الحلم الذى راود الثورة المصرية فى بدايتها، التعاون بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين. وقد كان بعض الضباط الأحرار منهم بما فى ذلك الوصى على العرش لولا الشقاق الذى وقع بين الفريقين فى أزمة مارس ١٩٥٤ والذى تعانى منه الثورة حتى الآن عبر الجمهوريات الثلاث. وظلت الولايات المتحدة وإسرائيل تضعان العقبات، وتوحى بالتناقضات بين الثورة الإسلامية فى إيران والقومية العربية، مرة باسم الجزر الثلاث فى مدخل الخليج وقد كانت مناطق للتكامل على ضفتى الخليج ورمزا لحسن الجوار كما فعل عبد الناصر فى محافظة وادى حلفا كمحافظة تكامل بين مصر والسودان وكما يمكن استمراره فى محافظة حلايب وشلاتين حتى تُبتلع الحدود المصطنعة التى وضعها الاستعمار بين كل دولتين عربيتين قبل الرحيل بين مصر وليبيا فى واحة جعبوب، وبين مصر وفلسطين فى مثلث العوجة، وبين الجزائر والمغرب فى واحة

تندوف، وبين اليمن والسعودية فى عسير ونجران، وبين الإمارات وعمان فى واحة البريمى، وبين سوريا وفلسطين فى وادى الحمة، وبين وسوريا ولبنان فى مزارع شبعا، وبين الكويت والسعودية فى مثلث تحت وصاية الأمم المتحدة، وبين الكويت والعراق على آبار النفط على الحدود والتى كانت سبب غزو العراق للكويت فى حرب الخليج الثانية.

ومشروع الثورة الإسلامية فى إيران لفلسطين يتجاوز المشروع العربى فى إزالة آثار العدوان، لا فرق بين نكبة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧. ومازالت تتحدى الهيمنة الأمريكية دفاعا عن حقها فى تخصيب اليورانيوم فى منطقة تزخر بالسلاح النووى فى إسرائيل وفى باكستان، وإسرائيل تهدد بضرب إيران بمفردها أو بالتعاون مع الولايات المتحدة، وحق الدفاع عن النفس حق مشروع. وهو ما يكشف المعيار المزدوج للغرب فى التعامل مع إسرائيل التى لم توقع على معاهدة منع انتشار السلاح النووى. ولا تسمح أن يفتش على مفاعلها النووى. والنووى الإيرانى قوة للعرب فى مواجهة النووى الإسرائيلى. والثورة الإسلامية فى إيران ظهير للثورة العربية. وهى الآن تعيد سيرة ناصر وهو يتحدى الاستعمار الغربى قبل العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦. وتقف الشعوب العربية والإسلامية مع الثورة الإسلامية فى إيران فى دفاعها عن استقلالها الوطنى وتحديها قوى الهيمنة والاستعمار الجديد الذى تمثله الولايات المتحدة الأمريكية.

والخطورة الآن على الثورة الإسلامية فى إيران هى الجبهة الداخلية. إذ لا تستطيع الولايات المتحدة بالتعاون مع إسرائيل العدوان العسكرى على إيران. إذ تستطيع إيران الرد العسكرى على الأسطول الأمريكى القابع فى الخليج. كما أن صواريخها تطول القوات الأمريكية فى العراق والقواعد العسكرية ومطارات إسرائيل. وقد تنهار النظم العربية التابعة للولايات المتحدة الأمريكية لاحتمال ثورة

الشعوب ضدها كما هبت الشعوب العربية مع ناصر أثناء العدوان الثلاثى على مصر بعد تأميم القناة فى ١٩٥٦، وتفجير أنابيب النفط فى سوريا، واندلاع الثورات العربية بعد ذلك فى العراق فى ١٩٥٨، واليمن فى ١٩٦٤، وليبيا فى ١٩٦٩. وقد تتغير الأوضاع فى الخليج نظرا لتركيبته السكانية والطائفية والمذهبية.

تستطيع الولايات المتحدة اللعب فى الجبهة الداخلية، والتآمر على الثورة الإسلامية من الداخل، وليس العدوان عليها من الخارج. تستطيع اللعب على القلق الاجتماعى كما ظهر فى توزيع البنزين بالبطاقات فى دولة من أكبر الدول المصدرة للنفط. تستطيع اللعب على التفاوت الشديد بين الفقراء والأغنياء والمشاكل الاجتماعية كالبطالة والإسكان. وقد خسر التيار الليبرالى الانتخابات الأخيرة لأن الحرية لم تشفعها العدالة الاجتماعية، وحوار الحضارات لم يقرن بتحدى قوى الهيمنة.

والأخطر من القلاقل الاجتماعية الحريات العامة، وضيق الناس بالمحافظة الدينية والتشدد فى السلوك اليومى، والتدخل فى حياة الناس الشخصية. فمازال التناقض الرئيسى فى الثورة الإسلامية هو قيامها على أساس محافظ، دينى إشراقى. يمثله صدر الدين الشيرازى الذى ينتسب الإمام الخمينى إليه ويتتلمذ عليه، وليس على شريعتى ممثل اليسار الإسلامى قبل اندلاع الثورة، الإسلام الاشتراكى التقدمى. ويتضمن ذلك اللعب على القوميات الفارسية والأذرية وغيرها التى تكون شعب إيران، والمذهبية والطائفية، سنة وشيعة، الممتدة فى الجبهة الشرقية فى الوطن العربى وفى الإسلام الأسيوى، إيران وباكستان.

لقد قضى على الثورة المصرية ليس بالعدوان الخارجى عام ١٩٦٧. فقد تم تدمير المدمرة إيلات فى نفس العام، وأُعيد بناء الجيش، وقامت حرب الاستنزاف

فى ١٩٦٨، ثم قامت حرب التحرير فى أكتوبر ١٩٧٣. بل قضى عليها بسبب الانقلاب الداخلى فى ١٥ مايو ١٩٧١ من الجبهة الداخلية وبنفس الرجال، وتحولت الثورة إلى ثورة مضادة، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن التعاون مع الاتحاد السوفيتى إلى التبعية للولايات المتحدة، ومن القطاع العام إلى الخصخصة، ومن مجانية التعليم إلى الحاجات الخاصة، ومن القومية العربية إلى القطرية.

إن التعاون الإقليمى بين مصر وإيران وتركيا يحمى النظم الثلاثة من العدوان الخارجى عليها، ويقلل المخاطر الداخلية فيها. فالديموقراطية والتعددية الحزبية مشهود لها فى إيران وتركيا دون مصر. والدفاع عن الاستقلال الوطنى والإرادة الوطنية مشهود له فى إيران وتركيا دون مصر. والطريق الثالث، الإسلام المستنير مشهود له فى تركيا دون إيران ومصر. ومصر مازالت الدولة القاعدة فى محيطها العربى، ما يحدث فيها له ردود فعل فى مائتين وخمسين مليون عربى دون إيران وتركيا. وأن مجموع سكان الدول الثلاث ما يقرب من مائتى مليون. مواردها الطبيعية وإنتاجها الصناعى وتراثها الإسلامى المشترك يجعلها تجمعا إقليميا مركزيا قادرا على تجميع دول الجوار العربية والإسلامية توسيعا لمفهوم القومية العربية.

من السهل مواجهة التحديات الخارجية وتجميع الشعوب حوله كما حدث إبان حركات التحرر الوطنى، ومن الصعب الوقوف أمام المخاطر الداخلية كما حدث بعد حركات التحرر الوطنى والنزاع على السلطة بين رفقاء النضال بالأمس القريب. ويُروى أن جهاد النفس أصعب من جهاد العدو لو صحت الرواية. لقد أتت الثروة والثورة للعرب والمسلمين ولم يستعدوا لها بعد. فبددوا الثروة وانقلبوا على الثورة. وفى التاريخ ضحى يهوذا بالسيد المسيح فى مواجهة اليهود والرومان.

٨- الدين ورجال الأعمال

العلاقة بين الدين والنشاط الاقتصادى عامة والتجارة خاصة معروفة عند علماء الاجتماع كما فعل ماكس فيبر فى دراسته الرائدة منذ حوالى قرن من الزمان "البروتستانتية وروح الرأسمالية" مؤكدا على وجود علاقة بين القيم والأخلاق البروتستانتية من ناحية وازدهار النشاط التجارى فى البلدان والمناطق البروتستانتية فى ألمانيا وفرنسا من ناحية أخرى، الصلة بين القدر والرزق، بين الإيمان والنجاح، بين التقوى والكسب.

ولا يحتاج العربى إلى هذا التنظير وهو يلاحظ هذه العلاقة فى الحياة اليومية فى مجتمعه. وقد ضربت النماذج من قبل بشركات توظيف الأموال واستعمال آيات مثل ﴿وحلل الله البيع وحرم الربا﴾ من أجل تجميع أموال الناس، أغنياء لمزيد من الكسب، وفقراء من أجل عائد سنوى أو شهرى صغير بدافع الإيمان وبدعوى المشاركة في الربح والخسارة وليس فى الربح فقط كما هو الحال فى البنوك الربوية وللاطمئنان على دخل شهرى حلال ثابت ضد البطالة والجوع. وتضارب هذه الشركات وتستثمر رؤوس أموال المسلمين فى البنوك الربوية للحصول على ربح سريع، وفى الغالب دون زيادة فى الإنتاج أو إتاحة فرص للعمل ضد البطالة أو تنمية اقتصادية أو بشرية فى مشاريع كبرى.

وازداد الأمر فى العقود الأخيرة باستعمال الإسلام كوسيلة ناجحة للربح

(*) الاتحاد: ١٥ سبتمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٦ سبتمبر ٢٠٠٧.

والنجاح التجارى باستعمال اسم الإسلام أو مشتقاته العقائدية أو التشريعية كأسماء لمحلات تجارية كبرى مثل "التوحيد والنور"، "الإيمان" أو "الإخلاص". ولما كان الهدف هو التجارة الداخلية والخارجية للاستفادة من العولمة يصبح اسم الشركة "إسلامكو". وتنتشر محلات الملابس الأنيقة بأزيائها وألوانها وجواهرها البراقة باسم "الحجاب" أو الزى الإسلامى أو "المايوه" الشرعى الذى يبرز قسمات الجسم مثل باقى "المايوهات" غير الإسلامية التى تبرز مفاتنه. وتكثر إذاعة الشرائط الدينية فى المحلات العامة إما القرآن الكريم أو الحديث أو شرائط الوعظ والإرشاد من مشايخ الفضاء أو الدعاة الجدد لإضفاء جو إسلامى على الأسعار ومحو الشك فى غلوها والمغالاة فيها. فالمسلم لا يغش ولا يحتكر ولا يستغل. ونافست شركات المحمول فى وضع أغانى إسلامية والآذان كألحان مميزة مثل أغانى وألحان مشاهير المطربين والمطربات، قدماء ومحدثين. كما تخصص قاعات للصلاة للنساء والرجال فى أحد الأدوار. فالحفاظ على الشريعة ترضى الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب. ويخصص أصحاب العمارات الشامخة البدروم كمصلى حتى يعفى من العوائد، ويشرع بيع الشقة بالمليون أو أكثر. ويلبس معظم الباعة، إقتداء بصاحب المتجر، اللبس الإسلامى، الجلباب الأبيض. ويتبع السنة العادية بإطالة الذقن وقص الشارب. وتأخذ بعض المنتجات أسماء إسلامية مثل بلح مكة، وعطر الرسول، والتين والزيتون ورمان الجنة. وتخصص محلات العطارة قسما للعلاج بالأعشاب طبقا لتعاليم الطب النبوى. والعسل ﴿فيه شفاء للناس﴾. وتوضع بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية كيافطات للمحلات لجذب الزبائن باستعمال الوازع الدينى. وتوضع المصاحف بالقطيفة الحمراء فى السيارات، وتعلق المصاحف الذهبية الصفراء لتزيين جيد النساء البيضاء. وتحمل المصاحف بين يدى الأطفال بالملابس الأفرنجية السوداء والبابيون حول العنق أمام الزفة مع الشمعدان وتُرش

عليه الورود وحبات الملح، والرقص الشرقى فى المقدمة. فيتحول المصحف إلى وثن وديكور. وتذكر أسماء الله الحسنى فى بداية حفل الزفاف وعزاء الموتى وعيد ميلاد الأطفال كوصلة غنائية حتى تحل البركة على الجميع. ويختلط ذلك كله بالأمثال العامية على ظهر عربات النقل مع الصلاة على النبى مثل "العين صابتنى ورب العرش نجانى" والبسملة والحوقلة والسائق يسير مخدرا ليلا، وسائق الأجرة يغالى فى الأسعار بعد أن توقف العمل بالعداد. وفى أوقات الصلاة توضع على أبواب المحلات بما فى ذلك الصيدليات والمكتبات العامة "مغلق لأداء الصلاة". ويضع المرتشون من الموظفين العموميين فوق رؤوسهم يافطات يختلط فيها الدينى بالشعبى مثل "القناعة كنز لا يفنى"، "الرزق على الله". ويوضع لفظ "إسلامى" لوصف كل شىء يُراد ترويجه وتسويقه مثل الزراعة الإسلامية، التجارة الإسلامية، الصناعة الإسلامية، التعليم الإسلامى فى المدارس الخاصة، المواصلات الإسلامية لفصل الرجال عن النساء بصرف النظر عن أسعارها ومستوى خدمتها. ويخرج الحاج من منزله محرما ويعود محرما بعد الحج، ويأخذ لقب حاج ينادى به فى الأسواق. وعلى متجره "حج مبرور وذنب مغفور" فتكون له الأولوية فى المعاملات التجارية، وتقوى ثقة العملاء به.

وتمتلئ القنوات الإعلامية بمشايخ الفضاء بأرديتهم البيضاء وذقونهم السوداء للحديث عن الإسلام الشرعى والعبادات وضرورة التمسك بحرفيتها دون التعرض لمصالح الأمة ومآسيها فى العدوان الأمريكى على العراق وأفغانستان، والاحتلال الإسرائيلى لكل فلسطين أو حتى القدس برؤية إسلامية، والاحتلال السوفيتى للشيشان، والهندى لكشمير. لا فرق بين مشايخ الفضاء وأساطين الغناء وفتيات الإعلانات وراقصات "الفيديو كليب"، والتكسب بالدين والوعظ والإرشاد تخديرا للناس وإبعادهم عن قضاياهم الاجتماعية والسياسية. وتُطعم إعلانات

التهنئة ببعض الآيات والأحاديث حتى تلقى الحظوة لدى الرئيس أو الوزير أو المدير. فالتهنئة من القلب. ومعها اسما المهنِّى والمهنَّى وأسماء شركاتهما ومناصبهما وكيفية الاتصال بهما وما تقدمه من منافع وفرص عظيمة. وتتوالى التهنئة بقدوم الشهر الكريم واسم المهنِّى وشركته وبضاعته، ونصب موائد الرحمن على أبواب المتاجر فيطعم الجائع والفقير من ناحية وتكثر الزبائن من ناحية أخرى.

فى الظاهر التدين، وفى الباطن الربح والتجارة والمكسب دون الخسارة. ولا فرق فى هذه الممارسات بين الطبقات الاجتماعية الدنيا والمتوسطة والعليا. الدنيا لأن الدين غذاؤها، عزاؤها وأملها. والوسطى لأن الدين هو القانون والنظام وهو ما ترعاه الطبقة الوسطى باعتبارها القائمة على الأمن والاستقرار. والعليا كغطاء شرعى للثروة والفساد والاحتكار والاستغلال، والأرزاق مقدرة من قبل. وليست من كسب الفقراء بالحلال أو من احتكار رجال الأعمال وفسادهم بالحرام.

ولا فرق فى ذلك بين الاقتصاد والسياسة، بين المحكوم والحاكم. فإذا ما سقطت شرعية الحاكم لتبعيته للخارج، وصلحه وتطبيعه مع المحتل، وقهره فى الداخل، وسلبيته أمام الفساد ابتداء من الحاشية حتى المجتمع الكبير فإنه يستعمل شرعية الدين. يحضر احتفالات توزيع الجوائز على الفائزين فى مسابقات تحفيظ القرآن الكريم، ويتصدر الاحتفالات بالأعياد والموالد الدينية. يلبس ملابس الإحرام، والزيبية على الرأس، والعصا فى اليد، والدعاء على اللسان، وتسبيل العينين تقوى وخشوعا. وبعضهم يأخذ لقب "أمير المؤمنين"، "خادم الحرمين"، "الرئيس المؤمن"، "خامس الخلفاء الراشدين" أو "آخر فراعنة مصر" كما تأخذ حرمه لقب "ملكة مصر" بدلا من "السيدة الأولى". يختلط الدينى بالدنيوى وتتداخل السلفية مع العلمانية. والغاية إيجاد شرعية للرئيس ولنظام غير شرعى.

والعجيب أنه فى مصر والوطن العربى والعالم الإسلامى يزدهر القطاع الخاص على حساب القطاع العام بدعوى العولمة وفى نفس الوقت تزداد الحمية الدينية والتمسك بالمحافظة الإسلامية. كل منهما يغذى الآخر ويدعمه. الدين كغطاء شرعى للربح، والربح كغطاء شرعى للدين. كلاهما من عند الله. فالله هو الهادى والموفق. وهو الرازق والعاطى. وما من مولود يُولد إلا ورزقه معه. وفى الأمثال العامية "المتعوس متعوس ولو علقوا على راسه فانوس"، "يا متعوس غير رزقك ما تحوش".

وفى مصر أيضا عديد من الأمثال العامية التى تدحض هذا التداخل بين الدين والتجارة "اللى عايزه البيت يحرم على الجامع". فالحياة لها الأولوية المطلقة على الدين، "خذ من كلام الشيخ ولا تأخذ من أفعاله" لأن كلامه مجرد غطاء شرعى لأفعال مناقضة للأقوال. الدين والمصلحة الشخصية متداخلان فإذا بال الكلب على حائط الجار عليه أن يهدمه ويبنيه سبع مرات. وإذا كان الحائط هو حائط الشيخ فقليل من الماء يطهره.

٩- نقد الوعظ الديني

يبلغ الوعظ الديني ذروته في شهر رمضان. وقد مر نصفه الأول. وبدأ نصفه الثاني. وهو وقت مراجعة النفس والفكر وتقديم الحساب. ما الذي جنيناه على مستوى الوعي الديني وهو أساسا الوعي بالحياة وبالواقع وبالتاريخ؟ ما الجديد بالنسبة لما قيل في الأعوام الماضية وربما ما سيقال في الأعوام القادمة؟ أليست مجرد خطب ووصايا ومواعظ نمطية "رمضانية" عن فائدة الصيام وأركانه والتي تمتلئ بها أيضا صفحات الفكر الديني وأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والتي يعرفها الأطفال والتلاميذ في المدارس والأبناء في المنازل؟ هل يؤدي الوعظ الديني وظيفته أم أنه أصبح حرفة يتكسب بها الوعاظ والدعاة كما يتكسب بقراءة القرآن على المقابر بدعوى طلب الرحمة على الموتى؟

الوعظ الديني نشاط ذهني ونفسي على مستوى الكلام وليس الفعل، باللسان وليس باليد. في حين أن الفعل يتطلب السكوت "واستعينوا على قضاء حاجتكم بالكتمان". وكتب الفقهاء مثل ابن أبي الدنيا عن آفة الكلام وفضيلة الصمت. والصمت عند الصوفية لغة أبلغ من الكلام. غايته التأثير في السامعين واستجداء استحسانهم وتصفيقهم وتهليلهم وتكبيرهم. يقوم الخطاب الوعظي على جماليات اللغة وفنون الإلقاء وكل صنوف المحسنات البديعية خاصة التشبيهات والمجازات والاستعارات وضرب الأمثال. هو عالم مستقل بذاته لا يشير إلى عالم آخر خارج

(*) الاتحاد: ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٧، الدستور: ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٧، العربي الناصري: ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٧.

نطاق اللغة وسحرها وبلاغتها فى ثقافة الشعر قلبها، والقرآن مركزها لدرجة اتهام بعض المستشرقين لها بأنها ثقافة صوتية مع أن فنون السمع أقرب إلى القلب وأعمق وأكثر قدرة على التعبير عند هيجل من فنون الصورة والشكل.

وهو خطاب مناسبات فى الأعياد والموالد، وفى المآتم والأفراح على المقابر وأمام العروسين فى عقد القران. وقد استمعنا إلى كثير منه على موائد الإفطار الرسمية فى رمضان التى تقيمها المؤسسات والهيئات من كبار الدعاة ورؤساء الطوائف بملابسهم الرسمية وألوانها الزاهية وكأننا فى سوق عكاظ ومهرجانات الشعر والخطابة.

أصبح الوعظ الدينى حرفة لها رجالها وخطباؤها ومدارسها ومعاهدها الرسمية والأهلية. الوعظ صناعة بتعبير القدماء. تخصص فيها مشايخ الفضاء بملابسهم الفضفاضة البيضاء، وذقونهم الطويلة السوداء، وملامح الوجه المليح، والعيون التى يشع منها بريق الإيمان، والشباب الصبوح القادر على سحر النساء، والدخول إلى القلب مباشرة عن طريق الإيمان الذى يحتاج إليه الناس بعد أن تم بيع كل شىء والتجارة بكل شىء. وأصبحت القلوب فارغة من أى ولاء، والنفوس شاغرة من أى مبدأ أو قضية. وفى ذلك ينافس مشايخ الفضاء نجوم الفن وأساطين الغناء. كلاهما طرب، طرب القلوب فى الوعظ الدينى وطرب النفوس فى الفن والغناء. وتحولت شخصية الواعظ إلى شخصية رئيسية فى الأعمال الدرامية، فى الرواية والقصة والمسرح والسينما مثل مشاهير النجوم **﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾**.

والوعظ المرئى جزء من فن التمثيل والإلقاء بالإضافة إلى الأزياء والماكياج. هناك الأضواء والأصوات والأثاث وكل عناصر الإخراج فى العمل الفنى حتى يصبح

الوعظ فنا متكاملا من المقدمة الموسيقية أو التلاوة القرآنية الأولى حتى الابتهالات والدعوات والصلوات والبكائيات الأخيرة. وتضاف إلى فنون الإخراج فنون التمثيل ولغة الجسد والحركة، وهز الكتفين، ورفع الحاجبين، وطريقة الجلوس على كرسى الوعظ المرتفع، والمستمعون أمامه يستحسنون الإلقاء، لا فرق بين المغنى والواعظ. كلاهما منشد أو بالتعبير الشعبى "صييت".

وحضور حلقات الاستماع شرف كبير للمستمعين. يتهافت عليها الصغار والكبار، الرجال والنساء ليستمعوا إلى الوعظ الجديد، ويظهرون فى التليفزيون. يبحث الناس عن بطل بعد أن عز الأبطال بانقضاء الستينيات. يبحثون لاشعوريا عن شجيع وفتوة. ويتوقون إلى مخلص ولو بالنبوت كما صور نجيب محفوظ فى "ملحمة الحرافيش". الناس فى حاجة إلى زعيم وقائد لا يجدونه فى الواقع فيوجدونه فى الخيال. يغيب فى الحياة فيحضرونه فى الوعظ الدينى. تتوق الأمة إلى من يأخذ بيدها، يهديها ويرشدها إلى الطريق المستقيم، وينقذها مما هى فيه من آلام ومآسى وأحزان. ويحميها مما تنتظره من كوارث ومصائب تمس لقمة العيش.

والمستمع ابن وقته مثل الصوفى. يعيش لحظته لينسى الزمان الممتد العريض قبل لحظة الوعظ وبعدها. أتى إلى الوعظ ليفرج همه ويخفف كربه ويستريح نفسيا. ثم يغادر الوعظ ليشحن من جديد بمنغصات الحياة والصراع من أجل البقاء وإشباع الحاجات الأساسية وتوفيرها للزوجة والأولاد، وللآباء والأمهات، وللإخوة والأخوات الذين يعولهم. يجد فى الوعظ خلاصا وقتيا، وسعادة لحظية وراحة مؤقتة عن الهم الدائم والشقاء المستمر. لا يهمه موضوع الوعظ بل الوعظ نفسه، جماله ولغته وأسلوبه وصوته وخيالاته وأوهامه. يهمه الشكل دون المضمون. يعجب بالواعظ بشخصه بصرف النظر عن وعظه. جماله وصوته وملامح وجهه وإشراقه يكفيه حتى ولو نطق كفرا. المستمع يتوق إلى مهارة وسحر وإبداع وتفوق وعبقرية

وخيال يجده فى الواعظ الذى يُشبع فيه حاجاته النفسية التى لم يشبعها فيه المجتمع ولم توفرها له الدولة. أصبح الوعظ أقوى مؤسسة دينية تنافس جميع مؤسسات المجتمع المدنى وجمعيات حقوق الإنسان والطفل والشيخ والمريض والمعتقل السياسى.

الوعظ أقرب إلى الخداع منه إلى الصدق. يقول ما لا يفعل. ويفعل ما لا يقول **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**. يسحر الناس بالكلام مثل الحقنة المخدرة دون أن يساهم فى يقظة الوعى بالذات وبالعالم. يجتزئ الآية عن سياقها وعن مجموع الآيات كلها. يدعو إلى الإيمان دون العقل، وإلى الرضا دون الغضب. يذكر أن الله يحب المتقين والمقسطين ويكتم أن الله لا يحب المعتدين والظالمين والخائنين والمختالين. يتناول العدل دون الظلم، والغنى دون الفقر، والسعادة دون الشقاء. يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالبعض الآخر. يستعمل الآية خارج أسباب النزول حتى يعلم الناس كيف غيرت الآية واقع الناس، وأن وظيفتها فى التغيير الاجتماعى وليس فقط مجرد السماع. يستعملها خارج الناسخ والمنسوخ وهو ما يبين تغير الأحكام الشرعية بتغير الزمان. لا يختار إلا الكلام الآمن عن المحبة والسلام دون الكلام الخطر عن الكراهية والحرب مع أن الله يحب ويكره، والأمة تسالم من يسالمها، وتعادى من يعاديها **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾**. والعدو يعتدى كل يوم فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير. والقرآن يتحدث عن الوسط **﴿كنتم أمة وسطا﴾** كما يتحدث عن الصراع **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾**.

الوعظ من أخطر أنواع الخطاب الدينى على حياة الناس. يساهم فى الاغتراب عن العالم، والخروج خارجه، والوقوع فى دائرة الوهم خاصة لو كان الموضوع المعاد والأخرويات وما يحدث للإنسان بعد الموت ابتداء من عذاب القبر

ونعيمه حتى عذاب النار ونعيم الجنة مرورا بالحشر والصراط والميزان والحوض والشفاعة. يساهم الوعظ فى تزييف الوعى. ويقوم بنفس الدور الذى يقوم به الخطاب السياسى للحزب الحاكم فى إعطاء الوعود والإيهام بالحلول. يوهم الوعظ بأن المشكلة فى النفس وليست فى الواقع، فى تربية المواطن وليست فى الأوضاع الاجتماعية، فى الأخلاق وليست فى السياسة. والحل فى الكلام وليس فى الفعل، فى الفرد وليس فى المجتمع، فى الإعلام وليس فى الشارع، بكثرة الدعاة والوعاظ وليس بالطلائع الثورية للعمال والفلاحين والمثقفين. هناك فرق بين التخدير واليقظة، بين المسرح والحياة، بين الجلوس أمام الشاشة الضوئية والمشاركة فى إضراب العمال فى المصانع، بين الرضا عن النفس والغضب من الزمان. "قدر أحمق الخطى سحقت قامتى خطاه".

١٠- الفتنة بين السلفيين والعلمانيين

وهل يحتاج الوطن العربى إلى فتنة جديدة تزيده تقسيما وتفتيتا وتجزئة؟ وكيف يتم ذلك بأيدينا وليس بأيدى أجنبية، أمريكية صهيونية؟ وفى نفس الوقت نقرأ تاريخنا ونعيب على أنفسنا وقوعنا فى الفتنة الكبرى الأولى بين علىّ ومعاوية. وننعى لأنفسنا ضياع الأندلس للحروب بين ملوك الطوائف وسقوط الإمبراطورية العثمانية للفتنة العرقية فيها بين الأتراك والأرمن والعرب ومختلف القوميات فى أوروبا الشرقية.

إن الخصومة الدائرة الآن بين السلفيين والعلمانيين إنما تساهم فى تفتيت الأوطان من الداخل، وهى فى أشد الحاجة إلى التمسك بالوحدة ضد مخاطر التفتيت من الخارج، والوقوف أمام المخطط الأمريكى الصهيونى لتفتيت الأوطان بداية بالعراق وكما قرر الكونجرس الأمريكى بجلسته أخيرا إلى مناطق ثلاث، كردية فى الشمال، وسنية فى الوسط، وشيعية فى الجنوب. والصراع بين عشائر وقاعدة وليس بين المقاومة والاحتلال. وهو ما يجرى الحال الآن بالنسبة إلى السودان وتقسيمه إلى شمال عربى إسلامى، وجنوب زنجى مسيحى، وغرب عرقى وشرق قبلى. والخطر مازال قائما على الخليج كله وتقسيمه طائفيا ومذهبيا إلى سنة وشيعة أو عرقيا بين عرب وأسيويين، والأمم المتحدة بالمرصاد تتلقى توجيهات الدول الكبرى باسم حقوق الإنسان وحقوق الأقليات. والخطر يهدد المغرب العربى

(*) الاتحاد: ٦ أكتوبر ٢٠٠٧، الدستور: ١١ أكتوبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٧.

كله وتقسيمه إلى عرب وبربر، والمغرب إلى مغاربة وصحراويين، وتشاد ومالى ونيجيريا إلى شمال عربى مسلم وجنوب زنجى مسيحى. بل ويهدد شبه الجزيرة العربية كلها إلى نجديين فى الوسط وحجازيين فى الغرب، ورافضة وسنة فى عمان، وزيدية وشوافع فى اليمن. ويهدد التقسيم لبنان إلى مسلمين وموارنة كما حدث فى الحرب الأهلية أو إلى مولاة ومعارضة كما يحدث الآن. والخطر يهدد الأردن وتقسيمه إلى بدو وحضر. ويهدد سوريا بتقسيمها إلى علويين فى الحكم وسنة فى المعارضة. وقد تقع حروب أهلية بين السلفيين والعلمانيين لتهدد وحدة الأوطان كما يحدث فى الجزائر دائما وفى المغرب أحيانا. وقد يقع الشقاق بين السلفيين والإصلاحيين كما يحدث فى الكويت. وهو ما يهدد الأمن القومى فى مصر فى الفتنة النائمة بين المسلمين والأقباط بالرغم من ادعاءات الوحدة الوطنية ومظاهرها المفتعلة وقضايا التنصير والطلاق والزواج المشترك، والسلوك المعيب لبعض الرهبان، والفتاوى الرنانة لبعض المشايخ بالنسبة لإرضاع الكبار أو التبرك ببول الرسول أو التوتر داخل الحزب الحاكم بين الرعيل الأول والرعيل الثانى أو بين الحكومة والمعارضة على كل المستويات، الحكم والتوريث والخصخصة والفساد وآخرها حبس رؤساء تحرير الصحف المستقلة.

وأخيرا برزت فى مصر فتنة جديدة بين أبناء الوطن الواحد بين السلفيين والعلمانيين. العلمانيون يهاجمون السلفيين آراء ومواقف وشخصيات وكأنه لا يوجد خطر فى البلاد إلا منهم. ولا يهاجمون المطبعين مع إسرائيل والمتأمركين باسم الليبراليين الجدد، ولا الأغنياء الجدد فى مارينا وسواحل البحر الأحمر والأبيض، ولا احتكار الحديد والأسمنت، ولا بيع القطاع العام والمؤسسات والشركات والبنوك باسم الخصخصة، ولا تزوير الانتخابات، ولا قوانين الطوارئ أو قانون مكافحة الإرهاب، ولا حبس الصحفيين، ولا التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، ولا

مظاهر الفساد الاقتصادى والسياسى، ولا الشللية فى الحكم وجماعات الضغط. ومن ثم يضع العلمانيون أنفسهم فى نفس الخندق مع الحكومة التى تعتبر الإسلاميين ممثلين فى الإخوان المسلمين عدوهم الأول، وخندق الأمريكيين فى اعتبار الحركات السلفية الجهادية فى العراق وأفغانستان وفلسطين وفى أمريكا وأوروبا عدوها الأول والذى بمواجهته يجد المحافظون الجدد شرعية لوجودهم، وتبريرا لسياساتهم العدوانية على الشعوب، وذريعة لتكوين الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

والصراع بين السلفيين والعلمانيين فى حقيقته ليس صراعا فكريا. فهناك سلفية علمانية وهناك علمانية سلفية. هو صراع على السلطة، ونيل الحظوة لدى الحاكم، والتسرب إلى أجهزة الدولة ومواطن السلطة فيها اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية بل وقضائية. وقد استثمر الحكام هذا الصراع على السلطة والتسابق إليها بالاعتماد على العلمانيين مرة لاستبعاد السلفيين أو بالاعتماد على السلفيين مرة أخرى لإقصاء العلمانيين حتى يضعف الجناحان ويقوى القلب ولا يكون هناك بديل آخر، لا "الإسلام هو الحل" ولا "العلمانية هى الحل" بل "الحكومة هى الحل".

والحقيقة أن الاستقطاب الحالى بين السلفيين والعلمانيين هو استقطاب مفتعل نظرا لوجود تيارات علمانية داخل الحركة السلفية مثل حزب الوسط بل والإخوان المسلمين أنفسهم فى مصر وسوريا ولبنان واليمن والمغرب. تقول بالدولة المدنية وبأن السلطة للشعب، وتدافع عن التعددية السياسية، وتلجأ إلى صناديق الاقتراع. فالمسافة بينها وبين العلمانيين ليست كبيرة. والإطار المرجعى العام الإسلامى أو الغربى يلتقيان فى المصالح العامة. فالمصلحة أساس التشريع. والشريعة وضعية كما قرر الشاطبى مثل القانون الوضعى. ومن العلمانيين من يسلم

بأن الإسلام هو التراث القومى للأمة وثقافتها الوطنية. هناك إذن جسور التقاء بين السلفيين والعلمانيين تسمح بالحوار الفكرى والوطنى بينهما من أجل مواجهة العدو المشترك، القهر والفساد فى الداخل والتبعية للخارج والاعتماد عليه. وحركة النهضة التى يعتز بها العلمانيون، الأفغانى، ومحمد عبده وقاسم أمين والطهطاوى وطه حسين والعقاد، جذورها ومنطلقاتها وأطرها المرجعية سلفية.

وليست كل الحركات السلفية تمارس العنف ضد الأبرياء. فالسلفيون يجاهدون فى فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير. ويقاومون حكم الفرد المطلق والنظام العسكرى القهرى فى باكستان. السلفية فى النهاية رد فعل طبيعى على الحركات العلمانية للتحديث التى تمت تجربتها فى حياتنا المعاصرة ليبرالية وقومية وماركسية. وكانت النتيجة مزيداً من الاحتلال. فقد ضاع نصف فلسطين فى ١٩٤٨ فى العصر الليبرالى. وضاع النصف الثانى فى ١٩٦٧ فى العصر القومى. وازدادت المسافة بين الأغنياء الجدد والفقراء الجدد. واشتد القهر. وضاعت قيم الحرية والعدالة معا. السلفية صرخة احتجاج ضد مآسى العصر، تبعية النظم وعجز الشعوب.

تشتعل الفتنة بالهجوم المستمر للعلمانيين على السلفيين وملأ الصحف بالسخرية منهم. فيلجأ السلفيون إلى القضاء للثأر منهم. ويستصرخ العلمانيون حرية الرأى والتعبير دون الدعوة إلى الحوار الوطنى بين فرقاء الأمة. ويستنجدون بالرأى العام بل وبالدولة لحمايتهم من أحكام القضاء ضدهم بالتعويض. وهو ما تتخذه القوى الأجنبية ذريعة للدفاع عن حقوق الإنسان وحرية الرأى والتبشير بالديموقراطية وبقيم العالم الحر. وينشغل الناس بالفتنة بين مؤيد لهذا الفريق ومناصر للفريق الآخر. فتنقسم الأوطان إلى فريقين متصارعين تاركين الصراع الحقيقى بين الداخل والخارج، بين الاستقلال الوطنى والتبعية الخارجية. وتفتح

جبهة جديدة تشتت الجهود، وتبعد الناس عن الجبهات الحقيقية فى الداخل، حرية الصحافة والرأى ضد قانون حبس الصحفيين، مواجهة الفساد والقهر والتزوير والتوريث وحكم الفرد المطلق، ومعارك العمال وإضراباتهم لنيل حقوقهم، والمخاطر التى تواجه سوريا ولبنان والسودان وإيران. وبدلا من الهجوم فى الصحف من العلمانيين واللجوء إلى القضاء من السلفيين هناك الحوار الوطنى بين اتجاهات الأمة المختلفة. فالكل راد والكل مردود عليه. كلا الفريقين ضحايا الفرقة الناجية. فالسلفيون يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية، والعلمانيون الفرق الضالة. والعلمانيون يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية والسلفيون الفرق الضالة. والحكومة تعتبر نفسها الفرقة الناجية والمعارضة الإسلامية ممثلة فى الإخوان واليسارية ممثلة فى كفاية والناصريين ومؤسسات المجتمع المدنى هى الفرق الضالة. البنية واحدة فى تكفير المخالفين فى الرأى. وهو ضد الإسلام الذى يقر بحق الاختلاف وضد التعددية التى تقرها العلمانية باسم حرية الرأى والتعبير.

إن الفتنة نائمة. لعن الله من أيقظها. التناقض بين السلفيين والعلمانيين تناقض فرعى فى الداخل. والتناقض بين الوطن وأعدائه فى الخارج، أمريكا والصهيونية، وفى الداخل، القهر والفساد تناقض رئيسى. إن الحرص على وحدة الأوطان مشروط بوحدة الداخل فى مواجهة الخارج **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾**. والسلطة ليست للحكومة أو للمعارضة بل للشعب والتاريخ.

١١- العدالة والتنمية فى تركيا والمغرب

العدالة والتنمية ليسا اسمين لحزبين سياسيين فى تركيا والمغرب نجحا فى الانتخابات الأخيرة فى المرتبة الأولى فى تركيا، وفى المرتبة الثانية فى المغرب، بل هما تجربتان حضاريتان تاريخيتان نهضويتان حديثتان استرعتا انتباه العرب والمسلمين، الخاصة والعامة، فى الداخل والخارج. أسعدتا أصحاب الحوار ومد الجسور والاعتدال وأشقتا أصحاب المواقف الحدية الأيديولوجية، إسلامية سلفية أو علمانية غربية.

هما تجربتان رائدتان ليس فقط سياسيا، ممارسة للديموقراطية، بل أيضا حضاريا، كيفية التعامل مع التاريخ والتراث الوطنى للشعوب. التعددية السياسية بلا حدود. وحرية الاقتراع بلا قيود أو تدخل من الحاكم أمام سمع وبصر الجميع. تشهد على أن العرب والمسلمين يعرفون كيف يمارسون الديموقراطية دون ما حاجة إلى فرضها من الخارج على أسنة الرماح وبالغزو العسكرى المباشر. لم تعد نتيجة الاقتراع ٩٩,٩٪ فى المائة لصالح المرشح الأوحد بل تكفى الأغلبية النسبية التى تقل عن ٥٠٪ من مجموع الأصوات مما لا يسمح بالانفراد بالحكم إلا عن طريق تحالف عريض وجبهة وطنية تجمع باقى التيارات السياسية أو على الأقل التالى فى الأغلبية بحيث يكون الحكم بمجموع الثلثين أكثر أو أقل.

(*) الاتحاد: ١٣ أكتوبر ٢٠٠٧، الدستور: ١٨ أكتوبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢ ديسمبر ٢٠٠٧.

وبالرغم من أنهما تجربتان سياسيتان منفصلتان إلا أنهما يدلان على واقع واحد وهو إمكانية تجاوز الاستقطاب الحاد بين السلفيين والعلمانيين، والحفاظ على الوحدة الوطنية، وحماية الوطن من جماعات العنف والتهميش السياسى والكبت النفسى والفكرى للحركات السرية. تركيا دولة إسلامية غير عربية والمغرب دولة إسلامية عربية يتشابهان فى التجربة السياسية الحضازية كما أفرزتها الانتخابات الأخيرة.

لقد خضع تاريخ تركيا الحديث لقانون الفعل ورد الفعل. فكانت الثورة الكمالية رد فعل طبيعى على انهيار نظام الخلافة التى أدت إلى احتلال اليونان لتركيا حتى مشارف أنقرة، ووصف الغرب للدولة العثمانية أنها الرجل المريض. فكان من الطبيعى أن ينهض الضابط الشاب بروح الوطنية والاستقلال للقضاء على رمز التخلف الداخلى وتحرير الوطن من الاحتلال الخارجى. ونظرا لأن نظام الخلافة العثمانية بما يمثله من تخلف وقهر كان يحكم باسم الإسلام، وكان الغرب يتقدم باسم العلمانية والتحديث، كان من الطبيعى أن يصبح الغرب نموذجا للتحديث، وتلغى الخلافة، وتتبنى تركيا القيم العلمانية: العقل، والعلم، والتقدم، والحرية، والديموقراطية، والمساواة، والعدالة وهى قيم إسلامية فى جوهرها، عند المعتزلة أنصار التحسين والتقبيح العقليين، وعند المالكية أنصار أن ما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن، وعند ابن رشد فى النظر العقلى والانفتاح على الآخرين والتأسيس الأخلاقى للشريعة بل وعند الصوفية الذين كانوا يجاهدون الاستعمار فى الزوايا والرباط مثل السنوسية فى ليبيا، والمهدية فى السودان. وعلى مدى نصف قرن خف رد الفعل، واسترجع الوعى التركى تاريخه الطويل وتراثه الممتد فى أعماق الشعور. فحدث رد فعل آخر على الكمالية الأولى ممثلا فى حزب الرفاه والعودة إلى الحمية الإسلامية وربما إحياء الخلافة. وامتدت سياسة تركيا الخارجية إلى الوطن

العربى من جديد وإلى أواسط آسيا لتثير الخيال القديم والحلم المستقبلى عن وحدة الأمة فى عالم متعدد الأقطاب. "الإسلام هو الحل". فحدث رد فعل آخر من العلمانيين ويمثلهم الجيش ضد التيار الإسلامى الأممى. فقضى على التجربة. وحرم على رئيس الحزب العمل السياسى. ثم أصبحت الحركة الإسلامية أكثر وعيا فى حزب الفضيلة ثم حزب العدالة والتنمية جمعا بين الفعل ورد الفعل. واستطاع تهدئة مخاوف العلمانيين من الإسلام السلطانى وتهدئة مخاوف الإسلاميين من العلمانية الجذرية التى هى فى الحقيقة سلفية مضادة. فكلاهما يعتقد بأنه الفرقة الناجية والآخر هو الفرقة الضالة. الإسلاميون يكفّرون العلمانيين، والعلمانيون يخوّنون السلفيين. استطاع حزب العدالة والتنمية بما لديه من خبرة فى العمل السياسى ووعى حضارى تحييد الجيش والحوار معه، وإقناعه بأن الإسلام الحضارى يقوم على القيم العلمانية، وأن القيم العلمانية فى حقيقتها قيم إسلامية احتكرها الغرب وجعلها ضد الدين، وهى فى الإسلام نابعة منه. كما استطاع التخفيف من حدة الإسلاميين السلفيين وإقناعهم بالإسلام الحضارى القادر على الدخول فى العالم أكثر من الإسلام الحرفى النصى العقائدى الشرعى المؤسسى. وفى نفس الوقت تم الحوار مع دول الجوار العربى والإيرانى والأسيوى، والابتعاد عن المحور الإسرائيلى بالرغم من قضية الأكراد. ومازال يصر على الانضمام للاتحاد الأوروبى والاستجابة إلى مطالبه فيما يتعلق بملف حقوق الإنسان وبعض أحكام الشريعة الخاصة بالقصاص دون التفريط فى الرموز الحضارية كغطاء الرأس. وهى رموز موجودة فى كل ملة ودين. وتميز كل ثقافة وحضارة. وكذلك الإبقاء على المدارس الدينية أسوة بالمدارس الخاصة الأجنبية الفرنسية والإنجليزية والألمانية. لم تضع لفظ الإسلام كاسم للحزب أو علامة عليه بل "العدالة والتنمية". وهما قيمتان إسلاميتان: العدل الذى قامت على أساسه السماوات والأرض ونظم الحكم. وإمام

كافر عادل خير عند الله من إمام مسلم ظالم. والعدل هو الشرط الأول للإمامة قبل القوة عند بعض الفقهاء. والتنمية إعمار الأرض وتحويلها من صحراء قاحلة صفراء، هشيم تذروه الرياح إلى أرض زراعية خضراء أصلها ثابت وفرعها فى السماء كما يصور القرآن. والتنمية الصناعية أيضا، تليين الحديد واستعمال النار أى الطاقة، جعل تركيا قلعة صناعية وعمرانية يشهد لها الجميع. وعلى الصعيد الداخلى وبما لها من رصيد شعبى تحاول تغيير الدستور حتى يكون انتخاب الرئيس بالاقتراع الشعبى المباشر وتحاور الأكراد اعترافا بحقوقهم فى إطار من وحدة الأراضى التركية والعراقية والسورية والروسية. فليست الدولة الوطنية ذات العرق الواحد هو النموذج الوحيد للكيان السياسى. ومعظم الدول تحتوى مللا وأعراقا مختلفة مثل سويسرا وكما قرر ذلك دستور المدينة.

وبدأ المغرب العربى حياته السياسية بحزب الاستقلال الذى يجمع بين الوطن والعروبة والإسلام. وهو القاسم المشترك فى المغرب العربى الكبير كله دون أن تتدخل القومية كحاجز أو مانع أو نقيض للوطن والإسلام كما حدث فى الشام كرد فعل على الخلافة العثمانية أولا والقومية الطورانية ثانيا فى تركيا. وبفضل حزب الاستقلال نال المغرب استقلاله السياسى من فرنسا بفضل علال الفاسى ورفاقه. ثم تكون فى رحم حزب الاستقلال اتحاد القوى الشعبية ثم الاتحاد الاشتراكى كجناح يسارى يضيف إلى الوطن والعروبة والإسلام التقدم والعدالة والتنمية. وحدث تداول للسلطة من حزب الاستقلال أولا إلى الاتحاد الاشتراكى ثانيا. والفقر والبطالة مازالا مستمرين ثم نشأت الحركة الإسلامية السلفية لتنافس الاثنين. وتمارس بعض أجنحتها السرية العنف السياسى ودون حوار وطنى بين الحزبين. ثم نشأ حزب العدالة والتنمية كجسر بينهما باسم الإسلام المستنير أو الإسلام الاجتماعى أو الإسلام الحضارى أسوة بالتجربة التركية. ولما كانت التجربة مازالت

وليدة ونقصها الحوار الخصب الجاد مع الحزبين السابقين لم تستطع الحصول على الأغلبية البرلمانية فى الانتخابات الأخيرة. وراود الناس الحنين لحزب الاستقلال الذى قاد حركة التحرر الوطنى دون الحصول على الأغلبية إلا بالتحالف مع الجبهة الشعبية أو الاتحاد الاشتراكى أو كليهما معا. وهو القادر على الدخول فى حوار مع الحركة الأمازيغية كما فعل حزب العدالة والتنمية فى تركيا مع الأكراد. لم يجعل الإسلام عنوانا له بل العدالة والتنمية، قيمتان إسلاميتان علمانيتان فى نفس الوقت مثل مقاصد الشريعة وهى الضروريات الخمس: الحياة والعقل والدين أى القيمة والعرض أى الكرامة والمال أى الثروة الوطنية. وقد تم هذا بفضل الملكية المستنيرة والحكم الدستورى والتعددية السياسية الذى كان حلم الحركة الإصلاحية منذ الأفغانى حفاظا على الوحدة الوطنية، أرضا وشعبا.

ولقد استطاعت ماليزيا خوض نفس التجربة التركية المغربية دون مدخل أيديولوجى، سلفى أو علمانى بل بالتوحيد بين الإسلام والوطن. والبداية ببناء الدولة الوطنية الحديثة، وصياغة مشاريع تنموية زراعية وصناعية جعلتها فى معدلات التنمية الثانية بعد الصين. التكنولوجيا قبل الأيديولوجيا. ونحن فى الوطن العربى مازلنا فى الأيديولوجيا قبل التكنولوجيا. مازلنا فى حالة استقطاب شديد بين السلفية والعلمانية مع غياب حوار جاد بين الجناحين وغياب الحوار شبه التام مع الدولة. وكل محاولة لإقامة الجسور مثل حزب "الوسط" فى مصر وحزب "النهضة" فى تونس بل والصياغات الأخيرة لبرامج الإخوان فى مصر والأردن ولبنان واليمن وتأكيدها على الدولة المدنية، والتعددية السياسية، والحرية والديموقراطية متجاوزة الحاكمية وتطبيق الشريعة تلقى آذانا صماء من نظم الحكم باعتبارها منافسا خطيرا لها فى حالة انتخابات حرة يخسر فيها الحزب الحاكم. مازال الصراع على السلطة هو المحرك الأول وليس جبهة الإنقاذ الوطنى التى يشارك فيها

الجميع. وشتان ما بين حزبى العدالة والتنمية فى تركيا والمغرب وحزب التنمية والعدالة فى دارفور غرب السودان، بين نظرة توحيدية للوطن ونظرة تجزيئية له.

تستطيع التجربة التركية والمغربية أن تساعد مصر وليبيا والجزائر وتونس والسودان وسوريا وشبه الجزيرة العربية فى الوسط والأطراف على خوضها تحديثا للإسلاميين، وإخراج النخبة العلمانية من عزلتها، وإيجاد مخرج لأزمة الحكم. ومصر حلقة اتصال بين تركيا شمالا، والمغرب غربا، وشبه الجزيرة العربية وماليزيا شرقا والسودان جنوبا. ولها لدى شعوبها رصيد من الحضارة والتاريخ.

١٢- الدين والثقافة والسياسة فى رمضان

عتاب على الإعلام العربى

انقضى شهر رمضان. واسترجاع حوادث الشهر الكريم وسلوكياته جزء من مراجعة النفس والنقد الذاتى وتحسين الأداء عاما وراء عام. وعدم تكرار الأخطاء أو الاستسلام للعادات.

وما يدعو للتأمل والعجب وضع الدين والثقافة والسياسة فى الإعلام العربى خاصة فى مصر فى شهر رمضان، فى الصحافة والإعلام، المسموع والمرئى، المدون والشفاهى. ففى الصحافة تلغى صفحات التحليل السياسى وصفحات الثقافة وتتحول إلى صفحات دينية يفتى فيها المشايخ والأطباء. فيتحول العام إلى خاص، وقضايا الأمة الكبرى وما تعم به البلوى إلى قضايا جزئية خاصة بالطعام والشراب وأنواع الغذاء والإختيار بين أفضله، والفقير يصارع كل يوم فى طوابير الخبز للحصول على الرغيف المدعم الذى يشتريه الغنى لإطعام مواشيه ولإقامة موائد الرحمن. بَعُدَ الدين عن الهم اليومى ومناظر دماء المسلمين فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان والسودان واقتصر على الغذاء كالحيوان. ابتعد الدين عن أزمة العصر الكبرى، احتلال أراضى المسلمين والذى كان السبب الأول فى الحركات الإصلاحية وقيام حركات التحرر الوطنى باسم الإسلام والعروبة والوطن. وفى نفس الوقت تزرع إسرائيل المستوطنات وتتوسع فيها. وتقام القواعد العسكرية الدائمة

(*) الاتحاد: ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٧ ، العربى الناصرى: ٢١ أكتوبر ٢٠٠٧.

فى العراق. ويزداد تدخل القوى الأجنبية فى السودان والصومال. والإذاعة تغنى "أهلا رمضان"، "رمضان جانا وفرحنا له"، وإذا قارب على الانتهاء "والله لسه بدرى يا شهر الصيام" حزنا على فراقه. واستعدوا لأغانى نمطية أخرى "أهلا، أهلا بالعيد" مع أطفال الشهداء والثكالى. والبعض يقول فى سره مع المتنبى "عيد بأية حال عدت يا عيد". وانقسمت الأمة إلى قسمين. قسم يجاهد ويقاوم ويستشهد ويُحاصر ويتظاهر من أجل يوم القدس العالمى فى فلسطين ولبنان وإيران، وقسم يقف فى طوابير الخبز واللحم والكنافة والقطايف أو يشاهد بالساعات المسلسلات الرمضانية التى يستعد لها التليفزيون شهورا قبله مع إعلان حالة الطوارئ. ويتأسف المشاهدون لغياب الفوازير نقصا فى النجوم وليس نقصا فى المال والرجال. يتم التخلى عن قضايا الأمة وما يهددها من مخاطر خارجية لصالح فتاوى رمضان على مدى شهر كامل. مع أن غزوة بدر كانت فى رمضان. وحرب أكتوبر كانت فى رمضان. وأجلت أمريكا عدوانها على العراق حتى مارس احتراما لشهر الصيام. فإراقة دماء المسلمين حرام فى رمضان، حلال قبل شهر الصيام أو بعده.

ولا تتناول صفحات الفكر الدينى خلال شهر رمضان قضايا السياسة الداخلية من هموم المواطن اليومية، الفقر والقهر والفساد وضنك العيش. ورمضان أساسا والحكمة من الصيام هو الإحساس بجوع الفقراء. لم تتعرض ليالى رمضان إلى مظاهر الغنى الفاحش ومظاهر الفقر المدقع فى الأمة. أغنى أغنياء العالم منها، وأفقر فقراء العالم فيها. لم تتعرض لمظاهر الفساد والاحتكار والاستغلال لقطاعات الحديد والأسمنت ولتهريب الأموال من خلال البنوك، والتهرب الضريبى. لم تتعرض لقضايا الحريات العامة وحبس الصحفيين والرقابة على المصنفات الفكرية والأدبية والفنية وتكفير المفكرين والكتاب والفنانين. لم تتعرض لقوانين الطوارئ أو قانون مكافحة الإرهاب أو تزوير الانتخابات أو إعداد المسرح السياسى

للتوريث وهو ما يناقض الشريعة الإسلامية التى تقول بالانتخاب الحر، "الإمامة عقد وبيعة واختيار" بتعبير الفقهاء. لم تتعرض لقضايا التعددية السياسية، وسيطرة الحزب الحاكم، وتشتت المعارضة وضعفها، ورفض شرعية الحركة الإسلامية سواء حزب الوسط أو الإخوان المسلمين بالرغم من تأكيدهما على الدولة المدنية وليس الدينية، وعلى الدستور والقانون والمؤسسات وليس الحاكمية. وترفض الترخيص لحزب الكرامة الذى يمثل جيلا جديدا من الناصريين لإنقاذ البلاد. بينما تسمح بإقامة حزب الخضر فى بلد ٩٤٪ من مساحته صحراء قاحلة. والأولى بها حزب الصفر لوضع خطة لكيفية التعامل مع الرمال. لم تتعرض صفحات الفكر الدينى إلى أن الدين النصيحة وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والحسبة للرقابة على الأسواق والميزانية العامة، واقتراح إلغاء ديوان المحاسبة وخصخصته لإفساد شركات المحاسبة الخاصة بالرشاوى للتغطية على الفساد والاختلاس والرشاوى فى جهاز الدولة. غابت القضايا العامة التى تعم بها البلوى من البرامج الدينية فى رمضان، الفقر والجهل والمرض قضايا أجيال مضت، وقضايا الفقر والقهر والفساد والبطالة والهجرة لهذا الجيل. يكفيها فتاوى فقهاء السلطان عن التبرك ببول الرسول أو إرضاع الكبير أو التنصير أو الزواج المشترك أو طلاق النصارى لإشعال الفتنة الطائفية. فأصيب المواطن بالازدواجية بين الدين والحياة. الدين لا يتعرض لشئون الحياة فضمر، والحياة لا يتناولها الدين فضاعت.

والأخطر هو إلغاء الصفحات الثقافية فى بعض الصحف القومية وتحويلها إلى صفحات للفكر الدينى وكأن الدين بديلا عن الثقافة. فى حين أن الدين هو تراث الأمة، ثقافة وحضارة وعلما وعمرانا. كانت الثقافة طريق النهضة فى تاريخ العرب الحديث. وكانت تياراتها الرئيسية الإصلاح الدينى، والفكر العلمى العلمانى، والتيار الليبرالى السياسى. وهى تيارات فكرية أساسا قبل أن تتولد منها

حركات سياسية وطنية تحررية من الإصلاح الدينى عند الأفغانى، ولامركزية ديموقراطية من التيار العلمى العلمانى عند شبلى شميل، وتأسيس دولة مركزية عماد التحديث عند الطهطاوى ثم ليبرالية عند أحمد لطفى السيد. ومازالت قوة الوطن العربى ورصيده الأول فى ثقافته وأدبه وفنه قبل زراعته وصناعته وتجارته. لم تتناول صفحات الفكر الدينى التى حلت محل الصفحات الثقافية لأزمة الثقافة العربية، وحالة الاستقطاب الشديد بين السلفية والعلمانية، بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وغلبة النقل من القدماء ومن المحدثين على الإبداع، وأولوية المشروع القومى للترجمة وغياب المشروع القومى للنشر، والمشروع القومى للتأليف. فالإبداع الثقافى مشروط بتفاعل الوافد أى الترجمة مع الموروث أى النشر. وقد كان هذا هو هدف "اللجنة المصرية للتأليف والترجمة والنشر". وقد نزل القرآن فى شهر رمضان. والقرآن هو ﴿اقرأ﴾ أى الثقافة والعلم والمعرفة. وقد تذهب الأمة، ويقضى على نظام الخلافة، ولكن تبقى ثقافتها وعلمها وحضارتها محفوظة فى مئات من مكتبات العالم ومحفوظاته ومعاهد مخطوطاته.

ونتيجة لإبعاد الدين عن السياسة والثقافة فى رمضان يبتعد الدين عن الحياة ويتحول إلى عبادات وشعائر ورسوم. وينزوى فى ركن خاص، الطعام والشراب. فيغترب الناس عن العالم. ويخلق الدين لهم عالما وهميا بديلا. فمن الناس من لم ينالوا من رمضان إلا الجوع والعطش. الدين المعاملة ويغيب الوعى بالمجتمع وبالعالم. وبعد رمضان يعود الناس إلى همومهم اليومية كما كانوا قبل رمضان. ففيه نسيت الهموم، وكبرت الكروش، وزاد الاستهلاك. ويمزيد من الصلاة، وإقامة السنن مع الفرائض، والحرص على صلاة التراويح وختم القرآن يتطهر المواطن. ويخرج من رمضان خاليا من الذنوب كما ولدته أمه، والاستعدادات على أشدها لضرب سوريا وإيران وحزب الله.

وعلى هذا النحو يتحول الدين إلى كهنوت. ويصبح دين المناسبات والأفراح والأعياد والجوائز والمكافآت فى الأرض لتحفيظ القرآن وفى السماء جزءا للوعد. مع أن الإسلام نشأ ضد الكهنوت اليهودى وسيطرة الأحبار، وضد الكهنوت المسيحى الذى أصبح واسطة بين العبد والرب. وارتبط تقدم الغرب بالثورة على رجال الدين والكنيسة من أجل العودة إلى العالم بلا سلطة دينية واكتشاف قوانين الطبيعة دون اللجوء إلى الكتاب المقدس، وإعمال العقل دون استبدال الإيمان به. ونحن نزيد على رجال الدين رجال الأعمال ورجال الدولة ورجال الحزب الحاكم حتى يتأصل الكهنوت الدينى فى الكهنوت الاجتماعى والسياسى والاقتصادى.

إن استبدال صفحات الفكر الدينى بصفحات الثقافة والسياسة فى رمضان جريمة لا تغتفر فى حق الدين والثقافة والسياسة. فالدين ليس عالما مفصلا عن الحياة خاصة ونحن نعانى من الحركات السلفية التى تجعل الدين غاية فى ذاته. وجريمة فى حق الثقافة. فالعقل أساس النقل، والنظر أساس الإيمان. والاستدلال طريق التصديق. وجريمة فى حق السياسة. فالإسلام عمل والتزام. ومن لم يهتم بشئون المسلمين فليس منهم حتى لو اتسعت عمامته وطالت ذقنه واسود قفطانه.

١٣- الخليج بين إيران ومصر

عاش العرب طموحات الوحدة منذ الحرب العالمية الأولى. وبلغت ذروتها فى الخمسينيات والستينيات إبان حركات التحرر الوطنى والحقبة الناصرية. وقامت تجارب عديدة بعد إنشاء جامعة الدول العربية كمنظمة إقليمية للدول، جمهورية مصر العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١ ثم الوحدة الرباعية بين مصر والعراق والأردن واليمن. وبعد حربى الخليج الأولى والثانية انفك العقد. واستبدل بذلك كله لجان التنسيق بين كل دولتين جارتين، مصر وليبيا، مصر والسودان، مصر والأردن، أو بين جارتين عربيتين بينهما تواصل تاريخى وثقافى واقتصادى بصرف النظر عن التواصل الجغرافى مثل مصر وتونس، مصر والجزائر، مصر والمغرب.

ومن أنجح تجارب طموحات الوحدة، تجربة مجلس التعاون الخليجى بفضل التواصل الجغرافى والتاريخى والثقافى واللغوى، وبمبادرة من قادة دول الخليج وبنوع من الاستمرارية والتدرج، وفى عصر التجمعات الإقليمية والتكتلات الكبرى. لا حدود بين دولها، ولا تأشيرات دخول، ولا مواطنة مجزئة. والعملة الموحدة فى الطريق، وأخيرا تم إنشاء السوق الخليجية المشتركة. فالاقتصاد عصب السياسة كرد فعل على التجارب الوحدوية الأولى التى كانت سياسة بلا اقتصاد، ودولا بلا شعوب، ونظما سياسية متباينة دون رؤية قومية واحدة. ورؤوس الأموال متوافرة من زيادة عوائد النفط المتتالية منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ والتى بلغت أكثر من ثلاثين

(*) الاتحاد: ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٧، الدستور: ١٩ ديسمبر ٢٠٠٧.

ضعفا، ومرشحة للازدياد إلى ستين ضعفا فى السنوات القادمة خاصة إذا اندلعت الحرب لأى سبب فى المنطقة بسبب عدوان إسرائيلى أمريكى على إيران بحجة تخصيب اليورانيوم وإمكانية تحويله إلى أسلحة نووية أو من طامع فى عوائده وأصوله فى الآبار حتى لا تبقى للعرب قوة عسكرية بعد تدمير العراق، أو اقتصادية بعد تغيير موازين القوى فى الخليج. وإذا كان العرب قد أضاعوا الثورة فمازال الأمل موجودا فى عدم ضياع الثروة، واستثمار عوائد النفط المتراكمة فى التنمية الشاملة للوطن العربى الذى يمتلك المال والأرض والمياه والعمالة والخبرة الكافية كى يتحولوا من دول نامية إلى دول متقدمة. وتجارب ماليزيا وأندونيسيا وسنغافورة وكوريا الجنوبية وتايوان وإيران وتركيا خير شاهد على ذلك.

وللخليج موضع جغرافى فريد. فهو على الضفتين العربية والأسيوية فى الغرب والشرق تمنحه قدرة على أن يكون مركز اتصالات عالمية بين الشرق والغرب. وهو ما يحدث الآن فى دبى. وهو نقطة التقاء بين الشمال العربى فى العراق والشام الكبرى والجنوب الأفريقى كما فعلت الهجرات الهندية إلى أفريقيا والتى منها خرج غاندى مدافعا عنها. ويكون للخليج نفس المركز الذى لقناة السويس فى ربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب. وهو المركز الذى تطمح له إسرائيل بشق قناة مائية جديدة بين البحر الميت والبحر الأبيض المتوسط لخلق مركزية إسرائيلية جديدة بدلا من المركزية العربية فى الخليج ومصر.

يحتاج الخليج إلى سياسة توازن بين شرقه الأسيوى وغربه العربى، بين سكانه الأسيويين وسكانه العرب الأصليين أو المهاجرين من الشام ومصر، وليس توازنا بين شيعة وسنة. فهذه أسطورة خلقها الغرب لبث الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، وزرع الشقاق بين دول الجوار، إيران والخليج أو إيران ومصر أو إيران والعراق، وحتى لا يميل الميزان نحو إحدى الضفتين بفعل القرب الجغرافى أو الثقل

السكانى أو المصالح المشتركة.

لقد كان من التوفيق وحسن السداد دعوة إيران لحضور اجتماع مجلس التعاون الخليجى الأخير لإنشاء السوق الخليجية المشتركة. فإيران دولة خليجية مثل دول الخليج. والمصالح الاقتصادية معها أكبر من المصالح مع الغرب الأوروبى والأمريكى والشرق الأقصى الأسيوى. الخلاف المذهبى هو نوع من التعددية الفكرية داخل المذاهب. وداخل كل مذهب هناك تعدديات وفروع لا تنتهى. والتعارض النووى والتهديد العسكرى أسطورة خلقها الغرب بوجه عام وأمريكا بوجه خاص لإزاحة التعارض بين العرب وإسرائيل أو العرب وأمريكا. وهو تعارض فعلى بعد غزو أمريكا للعراق واحتلال إسرائيل لكل فلسطين، وخلق تعارض وهمى بين إيران والعرب. وإيران تقف مع الحق العربى فى فلسطين لأبعد الحدود. والتعاون الاقتصادى كفيل بالتعاون السياسى وحل قضية الجزر بما يحقق مصالح الطرفين. فعل ذلك عبد الناصر فى محافظات التكامل بين مصر والسودان فى وادى حلفا. ويمكن أن تتكرر فى حلايب وشلاتين. وجود الشعوب على أرض مشتركة خير وسيلة لحل قضية الحدود التى زرعها الاستعمار بعد نشأة الدول الوطنية لمنع التعاون الإقليمى وخلق بؤر توتر دائم قد تنتهى إلى حد الصراع المسلح، وتغليب التناقض الفرعى بين العرب والعرب مثل المغرب والجزائر فى قضية الصحراء أو العرب والمسلمين مثل قضية الجزر على التناقض الرئيسى، الصراع العربى الإسرائيلى وحقوق شعب فلسطين.

ومن أجل الحفاظ على أمن الخليج بالحفاظ على توازنه بين جناحه الشرقى الأسيوى، وجناحه الغربى العربى فإنه يمكن دعوة مصر أيضا لحضور مجلس التعاون الخليجى والانضمام إلى السوق الخليجية المشتركة. فمصر وإيران هما ميزان الثقل فى المنطقة. يجمعهما الجوار المشترك والتاريخ المشترك والحضارة

المشتركة والمصالح المشتركة والمخاطر المشتركة. يستطيع ميزان التعادل هذا المحافظة على عروبة الخليج سكانيا ولغويا وثقافيا فى الحياة اليومية وسياسيا واقتصاديا فى الحياة العامة. وقد كان هذا هو الهدف من إعلان دمشق. ويمكن إعادة تفعيله لمصلحة الأمن القومى فى الخليج على الأمد الطويل.

وعلى هذا النحو تصبح العمالة العربية فى الخليج عنصرا إيجابيا لا سلبيا لإيجاد التوازن قدر الإمكان مع العمالة الأسيوية التى هى الآن العنصر الغالب. وإذا كانت القوى الكبرى وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على توجيه قرارات الأمم المتحدة لصالحها وإملاء إرادتها عليها فإنه يمكن فى لحظة غضب على الخليج ورفضه التطبيع مع إسرائيل قبل إحلال السلام وقبول مبادراته التى تنص على "الأرض مقابل السلام" إصدار قرار بتحويل العمالة الأسيوية إلى مواطنين كاملين. لهم حق الاقتراع العامة وبالتالى تنتهى عروبة النخبة الحاكمة ويُصبح العرب كلهم خليجيون ومهاجرين أقلية، والأسيويون هم الأغلبية. وتستطيع الهند مقايضة هذا الخطر بكشمير وبالتحالف الهندى الإسرائيلى.

وحرصا على عروبة الخليج وإيجاد عنصر التوازن بين ضفتيه الأسيوية والعربية يتم استثمار جزء من عوائد النفط لتنمية الوطن العربى من أجل تكامله اعتمادا على العمالة العربية وحلا لمشكلة البطالة فيه. كما يساعد ذلك على تدعيم الأمن القومى الداخلى فى الخليج وتقليل المخاطر الخارجية المحتملة من إسرائيل وأمريكا واحتلال آبار النفط بدعوى حرمان إيران منها ودفاعا عن الأمن القومى لأمريكا بتأمين مصادر النفط، وتهديد الأمن القومى الإسرائيلى من القوة العسكرية والاقتصادية للخليج بضفتيه الشرقية والغربية، الأسيوية والعربية. وهو تحقيق لاتفاقية الدفاع العربى المشترك التى مازالت حبرا على ورق والتى لم تستطع صد الغزوات على الوطن العربى من خارجه، أمريكا وإسرائيل أو من داخله، العراق.

وفى هذه الحالة لا لزوم للقواعد العسكرية الأجنبية داخل الوطن العربى وفى مياهه الإقليمية فدفاع الوطن العربى عن نفسه كاف لحمايته من الأطماع القطرية والأجنبية.

من المخاطر المحدقة بالوطن العربى تآكله من الأطراف، من الطرف الأسيوى شرقا فى العراق والخليج، ومن الطرف الأفريقى جنوبا، السودان والصومال وزنجبار وموريتانيا، وانحسار العروبة فى شمال تشاد ومالى وانحسار الإسلام فى باقى الدول الأفريقية فى جنوب الصحراء. كما قد تتآكل حدود الوطن العربى الشمالية من مخاطر الفرانكفونية والتوجه الغربى نظرا للقرب الجغرافى بين المغرب العربى وأوروبا، وإقامة تعاون مغاربى أوروبى لحساب فرنسا بدلا من مشاريع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير لحساب الولايات المتحدة الأمريكية وابتلاع الوطن العربى كله شرقه وغربه وشماله وجنوبه ووسطه فى مصر عبر الأطلنطى وكمجال حيوى للإمبراطورية الأمريكية الجديدة. فإذا غاب المركز ضمرت الأطراف أو شلت. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾. وإذا احتجبت مصر انفرط العقد وتفرق العرب ذرافات ووحدانا.

١٤- "وفديناه بذبح عظيم"

انقضى عيد الأضحى المبارك الأسبوع الماضى، وهو أكبر أعياد المسلمين حيث يقف الملايين منهم على جبل عرفات. يهللون ويكبرون بصوت رجل واحد من مختلف القبائل والشعوب ويحمدون الله على ما أنعم به عليهم من الإيمان والتوفيق والإسلام خاتم الرسالات. تتوالى الأعياد عبر السنين. ويظل المعنى واحدا ثابتا يتأكد فى كل عيد، واللسان يردد "عيد بأية حال عدت يا عيد" نظرا للتفاوت الشديد بين دلالة المناسبة وواقع المسلمين، بين ما يجب أن يكون وما هو كائن، بين المثال والواقع. وانحسار الفعل الإنسانى المنوط بتحقيق الوحى كنظام مثالى للعالم.

والدلالة العظمى لعيد الأضحى المبارك مستنبطة من اسمه "الأضحى" أى الضحية، ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. والواقعة معروفة سواء كانت تاريخية عند الفقهاء أو متخيلة عند الفلاسفة. والدلالة معروفة أيضا، الإنسان قيمة مطلقة. حياته مقدسة. يصارع الموت حتى ولو كان بأمر إلهى. فالله حياة لا يأمر إلا بالحياة. من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا، فى التوراة وفى القرآن. وقد بعث المسيح أيضا. وتغلبت الحياة على الموت، والرفع إلى السماء على الدفن فى الأرض. والتضحية بالحيوان بديل عن التضحية بالإنسان. وقد كانت القرابين عند الساميين أحد مظاهر التقوى والعبادة. ومنها الختان فى اليهودية والإسلام، سيلان الدم رمز الحياة باسم الله. ضحى قدماء المصريين

(*) الاتحاد: ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٧.

بالإنسان فى احتفال مهيب بعروس النيل حتى يعم الفيضان والرخاء. وأنقذ الإسلام الإنسان. ونسخ الأمر الأول الذى وقع فى منام إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل بأمر ثان وهو التضحية بكبش تنفيذا للأمر الإلهى وفى نفس الوقت اعترافا بأن الإنسان قيمة مطلقة، وذبح الحيوان لإنقاذ الإنسان. بل إن بعض الملل والنحل أيضا تحرم ذبح الحيوان كما هو الحال فى الهند أو لدى جماعات الرفق بالحيوان الحديثة.

أما واقع المسلمين اليوم فهو على عكس ذلك. يتم التضحية بالإنسان والحيوان معا. فكم من الزعماء والقادة تم اغتيالهم وتصفيتهم جسديا مثل شهدى عطية وبن بركة بأيدى النظم السياسية ومثل عز الدين القسام والشيخ ياسين بأيدى العدو الصهيونى؟ وكم من أفراد المقاومة وزعماء المعارضة يتم تعذيبهم فى السجون والمعتقلات؟ وكم من المعتقلين يتم احتجازهم طبقا لقانون الطوارئ والحبس الاحتياطى؟ وكم من المواطنين يستشهدون فى بالوعات غير مغطاة أو بصعق الكهرباء أو بأسلاك عارية فى الطرقات أو بحوادث طرق غير ممهدة دون حد أدنى للأمان أو من حرق قطارات أو تصادمها أو من غرق عبارات فى البحار أو من غرق قوارب محملة بالهجرات غير الشرعية من الوطن العربى إلى شواطئ أوروبا؟

وكم من الفقراء يموتون جوعا وقحطا من المسلمين فى السودان والصومال وتشاد ومالى وبنجلاديش؟ وكم من عرايا الأجساد والمتشردين بلا مأوى يموتون من البرد والعراء؟ وكم من القوانين تسنها الدولة ضد حقوق الإنسان وإشباع حاجاته الأساسية فى الغذاء والكساء والإيواء والتعليم والصحة وحرية التعبير، بحجة الخصخصة، ورفع الدعم، وقانون العرض والطلب، ومنطق السوق، ومتطلبات الجودة والكفاءة، والحفظ على الأمن العام حتى يستقر النظام ويأتى المستثمرون هرولة لإنقاذ البلاد من الفقر والبطالة.

ونشأت جمعيات حقوق الإنسان كأحد تنظيمات المجتمع المدنى. وظلت ضعيفة الأثر، تتبناها النخبة. وتثار حولها من الدولة وأعدائها شبهة التمويل الأجنبى وتبنى جدول الأعمال الغربى وتوارى حقوق الشعوب لصالح حقوق الإنسان، وتهميش حقوق الجماعة لصالح حقوق الأفراد.

لم تتحول حقوق الإنسان إلى ثقافة شعبية عامة ربما نظرا لتهميش تراث الإنسان فى موروثنا الثقافى الدينى القديم. فقد غاب مبحث الإنسان كمفهوم مستقل فى تراثنا القديم. وظهر بصورة مغلفة داخل مفاهيم دينية وفلسفية وصوفية وفقهية أخرى. الإنسان فى صورة الإله فى علم أصول الدين مع مشاركة فى الصفات طبقا للحديث الشهير "إن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله". فالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة صفات مشتركة بين الإنسان والله. إن أطلقت على الإنسان مجازا تطلق على الله حقيقة. وإن أطلقت على الإنسان حقيقة تطلق على الله مجازا طبقا لقياس الغائب على الشاهد. وظهر الإنسان عند الصوفية فى نظرية "الإنسان الكامل" الذى تتحد فيه أيضا صفات الله وصفات الإنسان عند ابن عربى والجيلى. وظهر الإنسان فى علوم الحكمة أى الفلسفة كنفس وبدن أو روح وجسم بين الإلهيات والطبيعيات، جسم فى الطبيعيات وعقل فى الإلهيات، وليس الإنسان الواحد الوجودى الموجود فى الزمان والمكان. فالإنسان بين عالمين كما قال الكندى. كما ظهر الإنسان العامل فى الفقه الذى ينفذ الأوامر ويجتنب النواهى بدافع الطاعة والإيمان والتقوى والعمل الصالح.

وقد ذكر الإنسان فى القرآن الكريم خمسا وستين مرة مما يدل على أنه موضوع رئيسى. فقد خلق الإنسان ولكنه عُلّم البيان، ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. خُلق هشا ضعيفا متعجلا، لا يعى الزمان، تحركه الدوافع، وتسيره الانفعالات. يطلب العون فى ساعة الشدة، شاك، جاهل مجادل، وسواس، متأمل، ناس. يترصد

له عدوه الذى ينكر كرامته ويرفض أن يسجد له. ويهدد قيمته ووجوده. وهنا تبرز مسئولية الإنسان وتحمله الأمانة، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾. ومع ذلك يتحول الإنسان الهش إلى إنسان صلب. يحقق الكمال فى الأرض، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. يحترم والديه احترام الإنسان للإنسان، ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾. وهو ما حاولت الحركات الحديثة إبرازه خاصة إقبال.

لذلك ظل الغرب يزهو علينا بأنه وحده الذى أعطى العالم مفهوم حقوق الإنسان منذ نشأة النزعة الإنسانية فى القرن السادس عشر عند أراسموس والكوجيتو الديكارتى "أنا أفكر فأنا إذن موجود" فى القرن السابع عشر، والإنسان مركز الكون فى الثورة الكوبرنيقية عند كانط، ومثال من مُثل التنوير فى الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر. وصور الشعراء كما فعل شيلى فى "برمثيوس طليقا" بعد أن قيده آله اليونان لأنه أراد سرقة نار العلم ونور المعرفة. صحيح أن الإنسان هو الإنسان الغربى فى الممارسة، الإنسان الأبيض القوى المتحضر، النموذج الأوحد، السوبر مان، وليس الإنسان الأفريقى الأسيوى، الأسود أو الأسمر أو الأصفر. وصحيح أيضا أنه مجرد فرد لا جماعة. يدافع الغرب عن حقوق الإنسان وينتهك حقوق الشعوب. أعطى للعالم "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان" ولكنه نسى "الإعلام العالمى لواجبات الإنسان". فى الغرب حقوق بلا واجبات. ولدينا واجبات بلا حقوق.

١٥- الدولة والثقافة

يبدو أنه لا يوجد حل للأزمة العربية الراهنة على الأمد القصير. فالأزمة تتفاقم يوما بعد يوم. والسكون العربى لم يتغير. ووهم العجز العربى مازال مستمرا. والتغيرات الكيفية لا تحدث إلا إذا وصل التراكم الكمى إلى حده الأقصى فى سوريا ولبنان والسودان والصومال وإيران، وتفجير المنطقة العربية كلها إلى شظايا يسهل ابتلاع القوى العالمية والمحلية لها كما حدث فى تفتيت دولة الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى واحتلال معظم ممتلكات "الرجل المريض". ولم يشفع البديل، القومية العربية، فى لم الشتات إلا إلى حين، عقدين من الزمان، بداية بثورة يوليو فى أوائل الخمسينيات ونهاية بهزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ فى نهاية الستينيات.

لم يبق إذن إلا العمل على الأمد الطويل، واستعداد لمرحلة قادمة قد تكون أشد وأصعب. فقد تعودت القوى الكبرى اللعب فى الوطن العربى على مدى أربعة عقود ظانة أن الساحة خالية أمامها. أوطان تُحتل، ونظم سياسية عاجزة أو تابعة أو مغلوبة على أمرها أو فقدت الخيال السياسى أو قنطت من رحمة الله.

والعمل على الأمد الطويل هو العمل الثقافى، إعداد وجدان الأمة للنهوض من جديد. وكما بدأت الأمة بالفكر، وتغيير رؤيتها للعالم ومعاييرها للسلوك أى انتفاضة الذهن، وثورة العقل، والنقد الحضارى للماضى والحاضر فإنها قادرة اليوم من جديد

(*) الاتحاد: ١٩ مايو ٢٠٠٧، الدستور: ١٧ مايو ٢٠٠٧، الزمان: ١٥ مايو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٠ مايو ٢٠٠٧.

على إحداث ثورة فكرية ثانية. وتبدأ هذه المرة بالمفكرين الأحرار بعد أن بدأت فى تجربتها الأخيرة منذ أكثر من نصف قرن بالضباط الأحرار. والبداية بالفكر الحر هو الشرط الأول لقيام المجتمع الحر. هكذا بدأ التنوير قبل اندلاع الثورة الفرنسية. وامتدت آثاره حتى اندلاع الثورة الأمريكية. وانتشرت الأفكار الاشتراكية قبل اندلاع الثورة البلشفية. وظهر الإسلام الوطنى قبل اندلاع حركات التحرر الوطنى منذ الأفغانى حتى اليوم. وتأسس الإسلام الثورى قبل اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران.

توقف العامل الثقافى عن أن يكون عاملا فعالا بعد تأسيس الدول الوطنية الحديثة وتحويل الثقافة إلى إعلام. وظيفتها تبرير النظام السياسى. إن اختار النظام الاشتراكية فثقافتها اشتراكية. وإن بدّل إلى رأسمالية فثقافتها رأسمالية. وإن كان قوميا فثقافتها قومية. وإن بدّل إلى قطرية فثقافتها قطرية. فقدت الثقافة استقلالها. وأصبحت جزءا من إعلام الدولة بعد أن سيطرت الدولة عليه. وأسست "وزارة الثقافة والإعلام" وأحيانا يضاف "والإرشاد القومى". ولم ينج من ذلك إلا بعض المثقفين الذين آثروا الابتعاد عن الساحة الوطنية. والأدباء فمنهم عبروا عن ضيقهم بلغة الأدب الرمزية تخفيا من عين الرقيب. والتأويل متعدد، وحماية النفس ضرورية.

أصبحت مهمة المؤسسات الثقافية إعلامية. تقترب أو تبتعد من أجهزة الإعلام لتجميل النظام فى الداخل مثل مؤسسات القاهرة أو فى الخارج مثل مؤسسات الإسكندرية. وهى على مقربة من المتوسط جنوب أوروبا، وتوحى بمجدها الثقافى القديم. وماذا يفيد الطلاء الخارجى والمبنى من الداخل خاو، والأساس مزعزع؟ الهدف هو جمع المثقفين فى مؤتمرات متتالية بحضور العرب والأجانب من أجل إثبات حيوية النظام، والتفاف المثقفين حوله مع درجة عالية من التنظير.

ولا ضير من القيام بخطاب نقدى مادام الأمر لا يتعدى الكلام المغلق فى قاعات المجالس أو صالات الفنادق. فالكلام صرخة فى واد ليس لها صدى لا عند المثقفين ولا عند الناس ولا حتى عند النخبة السياسية لأنها هى التى أخرجت المسرحية واختارت الممثلين.

وبين المؤلف والمخرج والممثل مصالح مشتركة. منها إبقاء النظام وتجميله ضد تشويهه من جماعات الانحراف والتطرف، خصوم النظام وأعداؤه. ومنها توزيع المناصب الثقافية القيادية على الفريق الذى تتغير أدواره طبقا لمهارته فى اللعبة الشهيرة للكراسى الموسيقية. وبدلا من أن تكون الثقافة مستمرة والنظام السياسى متغيراً، أصبحت الثقافة متغيرة والنظام السياسى ثابتا وإن تغيرت اختياراته السياسية، من نخبة إلى نخبة.

وتنوع المثقفون وتعددت أدوارهم. فهناك المثقف المبرر للنظام، وهو ما سمى فى الأدبيات المعروفة مثقف السلطة. يقوم ليس فقط بتجميلها بل بتبريرها حتى لو قلب الحق باطلا والباطل حقا، وحتى لو كان هذا التبرير ضد قناعته الشخصية قبل أن يصبح خادما للنظام. وهناك نقيضه، معارض النظام. يشارك أحيانا فى النشاط الثقافى لإسماع صوته **﴿وإذ قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾** و"الساكت عن الحق شيطان أخرس". وقد يعزف عن المشاركة ويقاطع كدليل على الرفض والمشاركة فى المسرحية ولو من موقع المشاهد والمتفرج. وهناك المثقف الذكى، يد مع النظام ويد مع المثقفين على كافة اتجاههم، يساريين ويمنيين، اشتراكيين وليبراليين، ماركسيين وإسلاميين مستنيرين، قوميين وقطريين، شرقيين وغربيين لإظهار قدرته على الحشد والتجميع. فالكل وراء النظام. ويعمل فى كنفه وتحت رعايته ومراقبته. يستفيد من المنصب القيادى طامحا إلى ما هو أعلى منه حتى قمة المؤسسة الثقافية. ويحظى بالاحترام الواجب من جماهير المثقفين. ويزيد

الحشد بالكتابة فى الصحافة القومية والعربية داخل الأوطان وخارجها. وكلما زاد الانتشار قويت الثقة به، واقترب أكثر من الرياسة، الهدهد بين سليمان وسبأ. يوظف الثقافة لصالح النظام ضد أعداء النظام. فالثقافة سلاح مثل الجيش والشرطة والأمن. الاستقرار الثقافى ضرورة للاستقرار الأمنى. والوعى الزائف واحد، الوعى السياسى أو الوعى الثقافى.

والحقيقة أن هناك تناقضا بين الإعلام والثقافة، بين الدولة والثورة، بين النظام والنقد. الدولة شرطة وجيش وأمن ونظام، والثقافة شك ونقد ورفض وغضب. فى الدولة، المواطن الصالح تسليم وطاعة. وفى الثقافة، المثقف الوطنى ثورة ومقاومة. وظيفة الدولة الإبقاء على الوضع القائم من أجل الاستقرار والتنمية وجلب رؤوس الأموال. ومهمة الثقافة تغيير الوضع القائم إلى ما هو أفضل من أجل الرقى والتقدم، بحثا عن الكمال. تبغى الدولة إقصاء خصومها السياسيين وإبعادهم عن مراكز إصدار القرار. وغاية الثقافة المعارضة فى مراكز التأثير. هدف الدولة الضبط الجماعى وتأجيل الصراع الاجتماعى إلى جيل آخر ونظام سياسى لاحق. ودور الثقافة الحراك الاجتماعى فى هذا الجيل وإحداث التغير الاجتماعى المطلوب فى الحاضر دون تأخير أو تأجيل. الدولة حكومة، والثقافة أهالى. فلا الدولة تقوم بدور الأهالى، ولا الأهالى تقوم بدور الدولة. وطالما تحدث الفلاسفة والمفكرون من قبل عن عقل الدولة وعقل الثورة كعقلين نقيضين. غاية الدولة الإمساك بالحاضر وإيقاف الزمن، محو الماضى وإلغاء المستقبل. وغاية الثقافة تحريك الحاضر واستلهام الماضى والإعداد للمستقبل. فى الدولة الوحدة فضيلة والتعددية رذيلة، وفى الثقافة الوحدة رذيلة والتعددية فضيلة. وقد بلغ التعارض بينهما إلى حد استحالة تحويل الدولة إلى ثورة فى النظم التسلطية وتحويل الثورة إلى دولة فى النظم الثورية.

لذلك دعا كثير من الفلاسفة والسياسيين الوطنيين إلى استقلال الثقافة عن الدولة ورفع أيديها عن حوارات المثقفين، وعدم التدخل لنصرة فريق دون فريق. هكذا دعا اسبينوزا في "رسالة في اللاهوت والسياسة". قد تدعم الدولة أجهزة الثقافة ومؤسساتها، ولكنها لا تدخل في المعارك الثقافية وقضاياها وتعدد الآراء فيها. ورقابة الدولة على المصنفات الفنية والمطبوعات هي قمة المأساة في تدخل الدولة في الثقافة للسيطرة عليها وتحويلها إلى إعلام. ولا يكون وزراء الثقافة وأمناء مجالسها أعضاء في الحزب الحاكم حرصا على الاستقلال الثقافي وليس الولاء السياسي.

تتغير النظم السياسية وتظل الثقافة مستقلة عنها. ولا يعني الاستقلال الثقافي العزلة الثقافية عن واقع الأمة بل يعني الحرص على مصالح الأمة الثابتة والالتزام بها إذا ما عصفت النظم السياسية بها. استقلال الثقافة مثل استقلال القضاء واستقلال الجامعات هي العناصر الثابتة في وجدان الأمة، حرية الفكر، والعدل بين الناس، والنقد الاجتماعي.

١٦- الثقافة والحزب

كما تكون الثقافة مستقلة عن الدولة تكون أيضا مستقلة عن الحزب. فالدولة سلطة كلية. والحزب سلطة جزئية. الحزب سلطة داخل السلطة، والدولة سلطة مجموع الأحزاب. الدولة سلطة شرعية بالاقتراع العام لكل الشعب والحزب سلطة شرعية باقتراع خاص لأعضاء الحزب. أتى كلاهما عن طريق الانتخاب الديموقراطي الحر. شرعية الدولة تأتى من شرعية الحزب لأنه هو الذى اختار نظامها السياسى. وشرعية الحزب من شرعية الدولة لأنه يعمل فى إطار القانون العام.

فإذا ما عملت الدولة لحساب الحزب الحاكم تسقط شرعيتها لأن الدولة نظام موضوعى فى حين أن الحزب اختيار سياسى. وإذا ما عمل حزب المعارضة لصالح نفسه وليس لصالح الدولة فقد أيضا شرعيته باعتباره ممثلا للصالح العام وليس للصالح الخاص. وتضاربت المصالح بين الدولة والحزب، بين الكل والجزء مما قد يهدد بالصراع بين الشرعيتين وربما بالانفصال وتفكك الدولة إذا مثل الحزب أحد طوائف الدولة أو أعراقها أو مناطقها الإقليمية. يصبح الحزب دولة صغرى، وتصبح الدولة حزباً كبيراً. وتضيع الوحدة الوطنية، وينتهى الولاء للوطن الأم.

وهنا تأتى أهمية الثقافة كعنصر توحيد بين الدولة والحزب، وقاسم مشترك بين السلطتين الشرعيتين فى البلاد، سلطة الدولة وسلطة الحزب. فبالرغم من

(*) الاتحاد: ٢٦ مايو ٢٠٠٧، الدستور: ٢٤ مايو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٧ مايو ٢٠٠٧.

الصراع السياسى بين الاثنين إلا أنه يدور فى إطار وطنى عام تحميه الثقافة وترعاه. الثقافة إذن هى اللغة المشتركة بين الدولة والحزب، والجسر الموصل بينهما.

وتكمن الخطورة إذا ما تحزب الحزب ثقافيا وليس فقط سياسيا. يكيّف الثقافة طبقا للسياسة، ويرد الكل إلى الجزء. فيتحول الصراع بين الأحزاب كما يتحول الصراع بين الأحزاب والدولة من صراع سياسى إلى صراع ثقافى، ومن خلاف فى الفروع إلى اختلاف حول الأصول، ومن اختيارات سياسية إلى خيارات ثقافية، ومن برامج حزبية إلى دولة داخل الدولة.

الثقافة توحّد، والأحزاب تفرّق. الثقافة هى العنصر المشترك بين جميع المواطنين بصرف النظر عن انتماءاتهم الحزبية، والحزب هو التفضيل الخاص لبرنامج حزبى على برنامج حزبى آخر. وكلها برامج وطنية تعطى الأولوية للحرية والديموقراطية على المساواة والعدالة الاجتماعية أو العكس تعطى الأولوية للعدالة الاجتماعية وإعادة توزيع الدخل بين الأغنياء والفقراء وسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج على الحرية الاقتصادية والليبرالية السياسية. وكلاهما صحيح. إنما القضية فى التفضيل. كلاهما مطلبان فعليان ولكن الخلاف فى فقه الأولويات وهو فقه شرعى.

مهمة الحزب ليس التقوقع على النفس، والانغلاق على الذات وإلا ضمرت قواعده، وجمدت حيويته. إنما مهمته فتح أبوابه، ومد الجسور مع باقى الأحزاب، وتوسيع قاعدته من أجل تحقيق تحالف وطنى عريض وإقامة جبهة وطنية عامة أو ائتلاف وطنى تنصهر فيه الأحزاب من أجل عرض اختيارات بديلة للحزب الحاكم. مهمته التفرقة بين التناقضات الفرعية والتناقضات الرئيسية. فالحزب الليبرالى قد يتحد مع الحزب الاشتراكى كما هو الحال فى معظم الأحزاب الليبرالية

الاشتراكية أو الديموقراطية الاشتراكية. أما التناقضات الرئيسية فهى بين الحزب الليبرالى والحزب التسلطى وعادة ما يكون هو الحزب الحاكم، بين الحزب الاشتراكى والحزب الرأسمالى الإقطاعى الذى عادة ما يكون حزب النخبة السياسية التى بيدها السلطة والثروة، وبين الحزب القطرى، مصر أولا، الأردن أولا، الكويت أولا، والحزب القومى الذى يعطى الأولوية للمصلحة القومية على المصلحة القطرية، بين الحزب الذى يدعو إلى الصلح والتطبيع مع إسرائيل والأراضى العربية مازالت محتلة فى فلسطين وسوريا ولبنان والحزب الذى يدعو إلى أنه لا صلح ولا اعتراف ولا تطبيع مع إسرائيل قبل أن تنسحب من الأراضى المحتلة وتلتزم بالشرعية الدولية الخاصة بالتقسيم وعودة اللاجئين والحدود المعترف بها دوليا وعدم جواز احتلال أراضى الغير بالقوة.

مهمة الثقافة هنا مد جسور الحوار بين الأحزاب السياسية والتمسك بالثوابت الوطنية. فالثقافة الوطنية هى القاسم المشترك بين الأحزاب. وفلسطين أمانة فى عنق العرب بصرف النظر عن أيديولوجية الأحزاب السياسية، ليبرالية أو اشتراكية، إسلامية أو ماركسية، قطرية أو قومية. الثقافة الوطنية رصيد مشترك لدى كل المواطنين، تعبر عن تاريخهم ووجودهم المشترك قبل اختياراتهم الحزبية. الثقافة وجود الأمة الدائم عبر التاريخ تعبيرا عن هويتها. والأحزاب اختيارات طبقية وقتية، تتغير بتغير المصالح والتركيب الطبقى للمجتمع والتحالفات الحزبية والتى تهدف إلى الوصول إلى السلطة عبر صناديق الاقتراع وليس بالضرورة عبر الهوية الثقافية.

يموت الحزب إذا ما انغلق على نفسه، وأصبحت الثقافة الوطنية هى الثقافة الحزبية. يجف من داخله إذا لم يسمح بضخ دم جديد لقلبه حتى ولو كان من الأقلام غير الحزبية والتى لها وزن ثقافى وطنى كبير. يموت الحزب إذا ما تحزب

وانعزل ولم يجد القاسم المشترك الذى يجمعه مع باقى الأحزاب أو مع المستقلين، وأصبح كالجهاز العصبى فى الجسم يعبر عن مجموع حركته وليس عن حركة عضو واحد حتى ولو كان القلب أو الدماغ. وتتحجر الثقافة الوطنية إذا ما تحولت إلى ثقافة حزبية، وضحت بالوطن فى سبيل السلطة، وبالماضى والمستقبل فى سبيل الحاضر، وبالعقل فى سبيل القصر، وبوجدان الناس من أجل الاعتماد على أصواتهم للوصول إلى السلطة ثم طلب الطاعة منهم باسمها. وبالمثل يموت الدين إذا ما تحول إلى عقيدة. وينتهى الفكر إذا تحول إلى مذهب، ويتجمد الفن إذا ما تحول إلى تقليد. وبعد أن تنغلق الأحزاب على أنفسها يحارب بعضها بعضا بدلا من الحوار. كل منها يستبعد الآخر. حزب يخوّن حزبا، وحزب يكفّر حزبا. والحزب الحاكم سعيد بالاقتتال بين الإخوة الأعداء الذين ينافسونه على الحكم. فيضعف الجناحان ويقوى القلب. ويكون رجال الحزب مثل رجال الدين، كهنوتا مغلقا، وسلطة أيديولوجية وسياسية على أعضائه وعلى غيره من الأحزاب بل وعلى الدولة ذاتها. يتحول مثل الكنيسة إلى دولة داخل الدولة، وسلطة داخل السلطة. ثم يحدث الانشقاق الحزبى والصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد، بين التقليديين والتجديديين، بين المحافظين والليبراليين، بين المنغلقين والمنفتحين. فيبدأ الحزب دورة جديدة كما بدأ، تعبيرا عن الثقافة الوطنية أساس البرنامج الحزبى وعاقداً لحوار مع باقى الأحزاب لتكوين تحالف حزبى وطنى عريض قادر على التصدى للمخاطر الكبرى التى تواجه البلاد. هكذا قامت حركات التحرر الوطنى وحركات الاستقلال على تحالف وطنى عريض قائم على ثوابت الأمة فى التاريخ.

وهنا يأتى دور المستقلين الذين حرصوا على عدم الدخول فى شرنقة الحزب وبوتقته كحلقة وصل بين مختلف الأحزاب. قلوبهم مع ذلك الحزب، وعقولهم مع الحزب الآخر. وعادة ما يكونون هم ميزان الاعتدال فى الحياة السياسية إذا ما

غامرت الأطراف، كل طرف يشد الوطن إلى ناحيته فتميل الدولة إلى هذا الطرف أو ذاك. والدولة مثل الجبل لا يميد ولا يميل.

وهنا أيضا يأتى دور كبار الكتاب والمفكرين والساسة الذين يتجاوزون بقاماتهم بوتقة الأحزاب. فنجيب محفوظ ليس وفديا وإن كان تعاطفه مع حزب الوفد. وعبد الرحمن الشرقاوى ليس ماركسيا وإن كانت الماركسية هى انتماؤه الأيديولوجى. ومحمد إقبال وعلى أحمد باكثير وسيد قطب ليسوا إسلاميين وإن كان ولاؤهم الأيديولوجى للإسلام. ويوسف شاهين ليس يساريا ولا حسن الإمام يمينيا إذ يعبر كلاهما عن ثوابت أمة وروح شعب. روائعهما تنسب إليهما وليس إلى انتمائهما الأيديولوجى. والمفكرون والكتاب كذلك، فليس محمد حسين هيكل ولا طه حسين ولا العقاد مفكرين وكتاب ليبراليين ولكنهم مفكرون وكتاب خارج التصنيف الأيديولوجى. يعبرون عن ثقافة أمة، ونهضة شعب. وهكذا أيضا كان كبار القادة الوطنيين فى العالم الثالث فى الخمسينيات والستينيات، عبد الناصر، سوكارنو، نكروما، جومو كنياتا، سكوتوريه، شوين لاى، ماوتسى تونج، تنكو عبد الرحمن، غاندى، نهرو، يعبرون عن أوطانهم عبر الهويات الثقافية بالرغم من انتماءاتهم الحزبية التى تقوم على الجبهة الوطنية. ومازال كاسترو وموجابى يعبران عن هذا النمط البطولى القديم. ومازالت الأوطان تولّد مثلهم طالما ظهرت أشكال جديدة من الهيمنة والاستعمار، شافيز فى فنزويلا ومحمود أحمدى نجاد فى إيران. والوطن العربى مازال ينتظر من يملأ الفراغ ويخرج من ضيق أروقة الحكم إلى رحاب الثقافة الوطنية.

١٧- الثقافة الخائفة

الثقافة الخائفة هى إحدى أنماط علاقة الثقافة بالسلطة. ليست الثقافة المبررة للسلطة، وليست الثقافة المعارضة للسلطة، وهما النمطان الشهيران، بل الثقافة الهامشية التى تسير بجوار السلطة وعلى حافتها. لا تبرر ولا تعارض، لا تثبت ولا تنفى، بل تجعل الثقافة منفصلة عن السياسة والواقع، عالما مستقلا بذاته، لا ينفع ولا يضر طعام **«لا يسمن ولا يغنى من جوع»**. وظيفته ملء الفراغ وإظهار أحد مكونات الدولة الحديثة. هى ثقافة المؤتمرات الدولية التابعة للدولة والتى يُعد إليها إعدادا جيدا من الناحية التنظيمية، فنادق الدرجة الأولى، الانتقالات المنظمة بعربات الرئاسة أو وزارة الثقافة، الاستقبال، إعداد الأوراق وطباعتها قبل انعقاد المؤتمر...الخ.

موضوعاتها نظرية خالصة، علمية جامعية، مستقاة من أعماق التاريخ مثل الإيمان والعقل، الدين والعلم. طرف من عندنا وهو الدين والإيمان، وطرف من عندهم العقل والعلم لإلحاق القديم بالجديد، والماضى بالحاضر، والتقليد بالتجديد تأكيدا على الهوية والإيمان أمام الجماهير. فالنظام السياسى فى حاجة إلى سند شرعى من الدين لكسب الجماهير التقليدية فى الداخل. وهو فى حاجة إلى تحديث وتجديد وعصرية لكسب ثقة المثقفين العلمانيين فى الداخل، ورضى النظم السياسية فى

(*) الاتحاد: ٢ يونيو ٢٠٠٧، الدستور: ٣١ مايو ٢٠٠٧، الزمان: ٣٠ مايو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٣ يونيو ٢٠٠٧.

الخارج. العلم من التاريخ. والفكر محايد موضوعى لا ينحاز لشىء وإلا خرج عن الموضوعية.

يعتنى بالكم دون الكيف، مادام الكم غير مؤثر، والكيف غير وارد. المطلوب المهرجان والغطاء العلمى على الواقع السياسى. ليس له هدف ولا غاية إلا ملء الفراغ السياسى والثقافى. جمهوره صغير من العلماء المتخصصين فى الداخل والخارج. يفتتحه رجال الرئيس، وزراء الثقافة والتعليم والشئون الدينية. وصورة الرئيس بملابسه الرسمية ووشاحه وأوسمته وعصا المارشالية التى ترمز إلى السلطة والأمن والجيش والشرطة. فالعبد يقرع بالعصى والحر تكفيه الملامة. وفى خطب الافتتاح الرسمية يستشهد بأقوال الرئيس. فهو العالم الأول فى كل الموضوعات. يعرف كل شىء. ويوجه كل نشاط. ويقترح كل موضوع. ويدعو كل ضيف. يُذكر اسمه مع أفلاطون وأرسطو، والفارابى وابن رشد، وديكارت وكانط، وهيجل وماركس من القدماء، ودريدا وديلوز من المحدثين.

والفنادق على أطراف المدينة، لا يشعر بها أحد. ولا يقف المتظاهرون على الأبواب بلافتات عن حقوق الإنسان، والمطالبة بالحريات العامة، ومناهضة أمريكا وإسرائيل لتعطيل حركة المرور وسط المدينة أو لإثارة الشغب بفعل المندسين العملاء. معارك فى الهواء، دخان يملأ الجو. فالثقافة غطاء وليست كشفا، تعمية وليست إيضاحا. الثقافة لا تنقد الوضع القائم بل تضع فوقه ركاما من النظريات والمنقولات من القدماء أو المحدثين. يقوم بذلك موظفون فى الدولة من أساتذة الجامعات أو وزارات الثقافة أو رجال الإعلام. وكلهم مرضى عنهم من النظام. وأساتذة من الخارج يشاركون فى هذه التمثيليات الثقافية للإبقاء على الوضع القائم إمعانا فى تغريب الثقافة بدعوى الموضوعية والحياد ضد الشغب السياسى والاختيار الأيديولوجى، وبيع الثقافة وشرائها فى سوق السياسة.

يتوجس جميع المشاركين خيفة من أن يفلت اللسان، ويعبر عما يجيش فى القلب. ويضع المثقف الوطنى القيود على لسانه، والحواجز على قلبه، والإغلاق على ضميره حتى يستطيع أن يتكلم بما لا يعتقد، ويقول ما لا يؤمن به، ويتفوه بالمطلوب منه قوله وفعله بالعربية وهو النادر أو بالفرنسية وهو الشائع حتى يشارك الأجنبى لغته، ويبعد عن نفسه شبهة العروبة والإسلام فى الداخل. فهو غربى فرانكفونى كما يريد النظام السياسى والقوى الخارجية. يقود عربته وفرامل اليد مرفوعة حتى تسير ببطء ويتحكم فى سرعتها حتى لا تنطلق العربة على سجيتها. ويعيش ازدواجية الخارج والداخل، القول والضمير، الكلام والاعتقاد، "تجوع الحرة ولا تأكل بثديها".

ويصول الحضور ويجول بالفرنسية أكثر من العربية. فهو لا يقل حماسا عن المتحدثين. والكل لديه غيرة على العلم والحقائق العلمية حتى وإن غاب الوطن. وينفعل بتلك النظرية أو تلك لإخفاء انفعالاته الحقيقية بواقع الأمة وغياب حرياتها العامة، وديموقراطية الحكم، والتعددية السياسية، وحق الاختلاف، والرأى والرأى الآخر. وتظهر القدرات اللغوية للفرانكفونيين استجداء لإعجاب الأجانب، واستعلاء على باقى الباحثين الوطنيين الذين ساروا فى التعرب نصف شوط وندموا على ما فعلوا بعد أن ولى عصر العروبة وكاد يولى عصر الإسلام فى حضور العولمة الطاغى فى نظم التبعية لأمريكا وإسرائيل. ولعل أحد المسئولين يكون حاضرا فيلمح مثقفا جديدا يمكن تجنيده كمثقف للسلطة، يجمع بين الثقافة والسلطة بدلا من الصراخ فى الهواء الذى يفيد فقط فى جذب الانتباه وإن لم يفد فى توعية الناس.

وكما بدأ المؤتمر الدولى بمبادرة من الرئيس كذلك ينتهى بإرسال برقية شكر وتأييد للرئيس على رعايته للمؤتمر، وعلى فكرته العبقرية التى لولاها لما عقد مؤتمر، ولا تم نقاش، ولا فُتح فم، ولا سُمع صوت.

وقبل انفضاض الحفل يكافأ المدعوون بيوم سياحى فى آثار الدولة المضيفة رومانية أو عربية. فالقديم له بريقه وإن انطفأ بريق الجديد. والماضى له عظمته وإن ضاعت عظمة الحاضر. ويقبل الضيوف الأجانب الدعوة. فالعلم سياحة، والسياحة علم. أما الضيوف العرب فيسارع أكثرهم بالرحيل. فالمشاركة فى أحد فصول المسرحية أخف وطأة على النفس من المشاركة فى باقى الفصول حتى إنزال الشعار وسماع تصفيق الحضور.

كل ذلك نشاط ثقافى مصطنع لا يخرج من القلب ولا يؤثر فى قلوب الناس. إنها ثقافة ملء الفراغ. وحتى يبدو الرئيس إمام المثقفين وليس سجانهم وجلادهم. أهم ظاهرة فيها مشاركة الأجنبى، أولى الأمر بالأمس، ومبادرة الرئيس، أولى الأمر اليوم. والشعب فى كلتا الحالتين مأمور بأولى الأمر، مطيع لهم. يقلد الأولين. فالمغلوب مولع بتقليد الغالب كما قال ابن خلدون من قبل منظّر ثقافة البلاد. ويخشى الآخرين لما للسلطان من رهبة فى القلوب، وعسس حول المنازل والقاعات، وبصاصين فى المجالس والمنتديات. وتظهر معاملة البسطاء المزدوجة للعربى والأجنبى. فالأول بخيل فى الإكراميات، والثانى كريم. الأول يدفع بالعملة المحلية، والثانى بالأجنبية. الأول لا يصرف كثيرا فى مشروبات ومأكولات إضافية، والثانى ينعم بالحياة. فقد أتى عالما وسائحا. والسياحة المصدر الرئيسى للدخل القومى وليس الزراعة أو الصناعة كما هو الحال فى النفط فى الدولة الريعية. ومهما حيا العربى بلغة الضاد قارئا السلام التقليدى أو التحية الحديثة "صباح الخير" و"مساء الخير" قيل له "بون جور" و"بون سوار" حتى من عاملات النظافة، وخادمى المطاعم، وعاملى المصاعد حتى يكونوا على نفس مستوى الأجنبى. فلم يعد للوطن قيمة فى ذاته، لا فى السياسة ولا فى الثقافة، لا فى الوطن ولا فى الفكر بالرغم من مشاريع العالم الثالث عن الثقافة الوطنية وعن الاستقلال الثقافى للشعوب.

فإلى متى يضيع الوقت والجهد والمال فى الثقافات الهامشية الخائفة التى تسير بجوار الحائط حتى لا تصطدم به، وتمشى على قشر بيض حتى لا ينكسر أو على قشرة موز حتى لا تنزلق القدمان؟ أليس الساكت عن الحق شيطانا أخرسا؟ ومتى تتحول ثقافة الهامش إلى ثقافة المركز؟ ومتى تصبح الثقافة الخائفة ثقافة المواجهة، وثقافة النظام السياسى إلى ثقافة المقاومة؟ ولماذا يتقدم الآخرون ويتوقف الزمن عندنا، يصنعون مركبة التاريخ، ويحددون مسارها، ونحن نصعد إليها فى زمن ليس زماننا وفى اتجاه ليس اتجاهنا؟ متى تسترد الشعوب وعيها، تتحمل مسئوليتها، وتحمل أمانتها **﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾**.

١٨- الصالونات الثقافية للملوك والأمراء

للعرب باع طويل فى الثقافة الشاملة التى تضم العلم والأدب والفن دون السياسة. فهى جزء مكوّن للشخصية العربية. قد يندثر حكم العرب كما اندثر فى الأندلس وتبقى ثقافتهم ممثلة فى قصر الحمراء ومسجد قرطبة ومساجد طليطلة وأسوارها ومئذنة إشبيلية (الخيرالدا)، والألفاظ العربية التى تحولت إلى الأسبانية وعديد من اللغات الأوروبية.

فقد عُرف العرب قديما بأسواق الشعر، عكاظ وغيره. يتبارى فيها الشعراء. كان الشعر العربى مرآه للحياة العربية قبل الإسلام وبعده، ذاكرة العرب الجماعية، ومرآه لحياتهم الاجتماعية والسياسية والأخلاقية. ووضعت المعلقات السبع على جدار الكعبة، فالشعر مقدس مثل بيت إبراهيم. الشعر دين العرب قبل الإسلام، ودين العرب هو الشعر بعد الإسلام.

واستمر الأمر على ما هو عليه فى بلاط الخلفاء والأمراء. وانضم إلى الشعراء الفقهاء والعلماء والفلاسفة وأصحاب النحل والفرق بل والزنادقة والملاحدة. فالدولة منتصرة، ولا خوف عليها من المعارضة الفكرية والخصوم السياسيين. وتندثر الأسر الحاكمة والدول التى تسمت باسم ملوكها، وتبقى الصالونات الأدبية وسيرتها وعلماؤها وفقهاؤها. وفى العصر العثمانى احتكر بلاط الخلفاء والأمراء فقهاء السلطان العثمانيون. وبدأ اضطهاد الأصوات الإصلاحية المعارضة.

(*) الاتحاد: ١٧ نوفمبر ٢٠٠٧، ، العربى الناصرى: ١٨ نوفمبر ٢٠٠٧.

وأصبحت ثقافة الصالونات ثقافة سياسية مبطنة نظرا لضعف الدولة وحصارها بين خصومها فى الداخل وأعدائها فى الخارج. ومع ذلك تمثل السياسة عنصر الانقطاع فى حين تمثل الثقافة عنصر الاتصال.

وبعد قيام الدول الوطنية الحديثة أنشأت وزارات الثقافة مع قلق فى أسمائها واستقلالها بين وزارة الثقافة والإرشاد القومى، فمهمة الثقافة التربية الوطنية مثل وزارة التربية والتعليم، ووزارة الثقافة والإعلام، فمهمة الثقافة تبرير سياسة الدولة من خلال الإعلام المقروء والمسموع والمرئى، ووزارة الثقافة والتراث القومى تأكيدا على أهمية ارتباط الثقافة بالتراث القومى خاصة إذا كان تراث فرقة ومذهب، ووزارة الثقافة دون ربطها بغاية أخرى. ومع ذلك ظلت جزءا من جهاز الدولة تعبر عن سياستها. ولا تسمح بالرأى الآخر إلا فى حدود غير مؤثرة كما هو الحال فى باقى أنشطة الدولة مثل التعليم والإعلام والدين والسياسة ممثلة فى الحزب الحاكم.

ثم تأسست الجمعيات الأدبية والعلمية والفنية والثقافية. وتكونت جماعات الشعر والقصة، والنقد الأدبى والفنى والسينمائى. ثم قامت الاتحادات العامة للكتاب والفنانين والأدباء لتساهم فى النشاط الثقافى المستقل وإن كانت، طبقا للقانون، تخضع لإشراف وزارة الشئون الاجتماعية مثل جماعات المسنين والمهاجرين والصعايدة من أجل الضبط الأمنى وليست جزءا من وزارة الثقافة التى قد تعينها ماليا حتى لا ينفصل الجنين عن الأم، ويبقى الحبل السرى قائما فى علاقة تبعية علنية أو ضمنية.

وفى نهاية المطاف انضم الملوك والأمراء إلى الثقافة مساهمين فى نشاطها وحركتها من داخل القصور. فيعقد الملك صالونه الثقافى خاصة فى رمضان

بمناسبة الشهر الكريم. ويسميه باسمه الأول مثل المسجد تيمنا به. ويجتمع مع العلماء وهم فى الغالبية الفقهاء بالملابس الرسمية كما هو الحال فى حفلات البلاط أو المسرح أو الأوبرا أو فى الأفراح والمآتم الرسمية لرجال الدولة والأعمال. ويتناقش الملك مع العلماء، عالما مع عالم، وفقيها مع فقهاء، بالحجة والبرهان. فالملك هو العالم الأول، والفقيه الأول، والفنان الأول. وهو ما سماه الفلاسفة قديما العقل الأول أو النفس الكلية. يغلب عليها الثقافة الدينية. فالدين هو أساس الدولة، ويعطيها شرعيتها. والملك هو أمير المؤمنين ورئيس لجنة القدس التى مازالت محتلة، وإن لم يصل بعد إلى خليفة المسلمين. وقد تتغير الثقافة الدينية إلى ثقافة علمية. فقد خرج العلم فى تراثنا القديم من الدين، وكان الفقهاء علماء، والعلماء فقهاء. ومن ثم يظهر الملك عصريا، فالعصر عصر العلم. وتشارك النساء الرجال حتى يبدو الملك عصريا أمام الغرب الذى يتهم الإسلام والمجتمع الإسلامى بالذكورية والتخلف دفاعا عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل وضد شبهات تعدد الزوجات والطلاق والميراث وعدم جواز رئاستها للدولة، الإمامة الكبرى، وإن جازت لها الإمامة الصغرى، الصلاة بالنساء. وقد تكون الغاية من ذلك كله التغطية على النظام السياسى وما يمثله من قهر وتصفية للمعارضين، وتحسين صورة الملكية فى ذهن الشعب والدخول إلى القلوب من باب الثقافة والفن بعد أن انسد باب السياسة والحكم. ويقبل فقهاء السلطان المشاركة فى هذا "الديكور" الثقافى. ويتقبلوا الهدايا والعطايا، وينالوا الحظوة والتكريم، والكرم من شيم الملوك. فى حين يُستبعد فقهاء الشعب وعلماء الأمة الذين يمثلون مصالح الجماعة، ويفتون لصالح الناس. وفى تاريخنا انقسم الفقهاء قسمين: الأول نال الخلعة والصرة والمركبة والمنصب وهم فقهاء السلطان. والثانى اعتقل وسجن وعذب وطرد وقتل وهم فقهاء الأمة. والتاريخ يكرر نفسه.

وقد تنضم زوجات الأمراء لهذه الصالونات الثقافية. فالثقافة زينة المجالس وتاج الملوك وصولجان الأمراء مثل السيوف المعلقة على جنوبهم والخناجر المدفونة فى خواصرهم، مذهبة ومرصعة بالجواهر ولهم فيها مآرب أخرى . وظيفة الثقافة بالإضافة إلى الزينة قضاء الوقت. فاليوم طويل وزوجات الأمراء لا يظهرن فى الاحتفالات العامة، ولا يصحبن أزواجهن فى الأسفار الرسمية. ولا توجد ألقاب "السيدة الأولى". وتقع المنافسة بين زوجات الأمراء والملوك والرؤساء حول الصدارة الاجتماعية، والتسابق نحو خدمة المعاقين والأطفال والمسنين والمحتاجين، ونشر الثقافة بين الناس، وزيادة المدارس وملاجئ الأيتام دون المعذبين والمعتقلين فى السجون. والهدف هو التغطية والتعمية عن سياسات ذكورية أخرى تتعاون مع الأجنبى المحتل، وتسمح بإقامة قواعد عسكرية على أراضيها ومراكز قيادة لأساطيل فى مياهها لضرب جيرانها العرب والمسلمين.

وقد يكون الهدف أقل من ذلك التشدق بحرية الرأى، واحترام الرأى والرأى الآخر، والانفتاح على ثقافات العالم فى عصر العولمة، واللحاق بالعصر مثل المبانى الشاهقة والمطارات الدولية الشاسعة والموانئ الضخمة والشركات العالمية، والتحول من دولة صغيرة إلى دولة كبرى، ومن جزيرة فى بحر إلى قارة من القارات. وزهرة الصالون الثقافى فى آية من الجمال والأناقة واللباقة، تسر الناظرين، يهرع إلى صالونها المثقفون والأدباء والعلماء لنيل الحظوة والشرف مع العشاء الفاخر فى قصر السلطان وفتح أبوابه مثل قصر الجبلاوى فى "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ الذى يهابه الناس وقد يكون خاويا إلا من شبح يسهل التخلص منه.

الصالونات الثقافية مثل دوائر الحكم للنخبة وليست للشعب. ثقافة عالة وليست ثقافة شعبية. قد يتم تناول الفن الشعبى والشعر الشعبى كفن شعبى دون أى مردود ثقافى أو سياسى أو تحليل لأنساق القيم السلبية فيه والتى هى خير

دعامة للنظام السياسى. وقديما غنى أساطين الغناء رجالا ونساء للفنون ورعايتها من الملوك.

لم يتغير الكثير فى حياة العرب إبان الثورات العربية الأخيرة على مدى أكثر من نصف قرن من ثقافة صالونات الملوك والأمراء إلى ثقافة الرؤساء، عسكريين من الجيش أو الشرطة من خلال المؤسسات الثقافة التابعة للدول. ومادام الله فى التصور سلطانا فإن السلطان فى الواقع يتحول إلى إله. ويغنى الفنان لمديح الله والسلطان.

١٩- المال والثقافة

ازدادت أسعار النفط إلى حد كبير هذه الأيام. ووصل سعر البرميل الواحد حدود المائة دولار. ويتوقع البعض وصوله إلى حدود المائتين إذا ما اعتدت أمريكا أو إسرائيل أو هما معا على إيران أو إذا ما اعتدت إسرائيل على سوريا أو لبنان أو إذا ما وقع حرب فى الوطن العربى لسبب أو لآخر.

وبالرغم من أن قسطا كبيرا من العوائد تعود إلى شركات النفط، وباقى حقوق العرب فى البنوك الأجنبية، والأقل منها يستثمر داخل الوطن العربى، إلا أن استثمارات هذه العوائد تقوم بها شركات البناء الأجنبية لأضخم المطارات فى العالم، وأعلى البنايات، وأوسع الطرق وأمتنها، وشبكات الاتصالات داخل كل القطر العربى الذى به آباره. وكلها من مظاهر الدولة الحديثة. ولا يتم تخطيط ذلك على مستوى الوطن العربى كله، حماية لوحدته، وربط مدنه بشبكة طرق سريعة أو بشركات طيران عربية أو اتصالات عربية أو بإعادة البنية التحتية للأقطار الأقل تميزا أو إقامة مشاريع تنموية مشتركة خاصة ما يتعلق منها بالغذاء والصناعة والتعليم حتى إذا ما نضب النفط، فهو سلعة مؤقتة تنفذ بمرور الزمن، وجدت صناعات تحويلية بديلة قادرة على توفير العوائد البديلة.

ومن ضمن مظاهر الدولة الحديثة المشاريع الثقافية. فلا دولة بلا ثقافة، ولا ثقافة بلا عصرية، ولا عصرية بلا تعرف على أهم الإبداعات الثقافية للعصر عن

(*) الاتحاد: ١٥ ديسمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٦ ديسمبر ٢٠٠٧.

طريق الترجمة. فالحضارات الأخرى، غربا وشرقا، تبدع ونحن نستهلك. تؤلف ونحن نترجم. ويكون منهجنا فى التحديث نقل المعلومات ممن يعرف إلى من لا يعرف، من المركز إلى المحيط. فالتحديث يأتى عن طريق الوافد مثل مواد الصناعة والبناء الحديثة. مصدر العلم خارجى كما أن الوحى خارجى، هذا من الأرض وذاك من السماء. ولا تحتاج الترجمة إلى جهد كبير باستثناء ممول وناشر ومترجم. والتمويل موجود من عوائد النفط المتراكمة. والناشرون موجودون فى شتى أقطار الوطن العربى خاصة فى مصر ولبنان. والمترجمون موجودون أيضا، فرص عمل كبيرة، وأجر مجزى ومضمون. فنقل المعلومات أسهل من إبداعها. والترجمة أسرع من التأليف.

والحقيقة أن هذا وهم كبير. فالترجمة بمفردها لا تصنع ثقافة، ولا تقيم نهضة، ولا تؤسس حضارة. الترجمة أحد ثلاثة عناصر فى النهضة الثقافية مع النشر والتأليف كما فعلت مصر منذ قرن فى "اللجنة المصرية للتأليف والترجمة والنشر". والنشر العنصر الثانى. ويتفاعل الوافد والموروث أى الترجمة والنشر ينتج التأليف. الترجمة وسيلة وليست غاية. تهدف إلى التعرف على ثقافات الغير. هى مقدمة وليست نتيجة. آلة وليست هدفا. وتقوم على أسس اختيار واعية وليس مجرد ديكور ثقافى بترجمة أهم الإبداعات الإنسانية قديما وحديثا بصرف النظر عن مدى الاحتياج إليها ووجود جمهور لها، وتأثيرها فى المرحلة التاريخية الراهنة التى يمر بها المجتمع العربى. تكوّن بؤرا ثقافية عالمة ومتعالمة لنخبة من المتعلمين قادرين على قراءة أصولها الأجنبية إذا كانت باللغة الإنجليزية.

والترجمة فى الغالب ذات اتجاه واحد، من المركز إلى الأطراف، ومن الغرب إلى العرب، وليست مزدوجة الاتجاه فى اتجاه معاكس أيضا، من العرب إلى الغرب، إحساسا منا بأننا لا ننتج ثقافيا بل نستهلك فحسب. صحيح أن إبداعاتنا الأدبية فى الشعر والرواية والقصة والمسرح ترجم البعض منها إلى اللغات الأجنبية بعد

حصول بعض مبدعينا على الجوائز العالمية. ولم يخفف ذلك من عقدة النقص أمام الآخر الذى لم يتخفف هو الآخر من عقدة العظمة. ومع ذلك لدينا إبداعاتنا فى العلوم الإنسانية وفى الفكر العربى المعاصر تجهلها الثقافات الأخرى. وإذا كانت الترجمة ليست مجرد نقل لغة إلى لغة أو ثقافة إلى ثقافة بل تفاعل الحضارات فإنها تكون ذات اتجاهين، من الغرب إلى العرب، ومن العرب إلى الغرب حتى تتغير الصور النمطية التى كونها الغرب عنا على مدار السنين، ونظّرها العلماء بحيث أصبح التفكير والتنظير حكرا على الغرب وحده، دون غيره.

ويقوم بعض الشباب، خريجى الجامعات الأجنبية، بما لديهم من قدرات لغوية وبراعة فى العلاقات العامة بالعمل داخل هذه المؤسسات والهيئات الجديدة للترجمة. ويكتفى أصحاب رؤوس الأموال برئاستها، وتوجيهها عن بعد، ووضعها فى إطارها المطلوب، وتوظيفها فى الأهداف المحددة المعروفة سلفا. الناشرون العرب فى الصف الأول. ويلحق الناشرون الأجانب حتى لا تفوتهم قسمة الغنائم من ودائع النفط. ومرحبون بهم. فهم من بلاد أهل التأليف والإبداع. والمترجمون أى العلماء هم الذين ينادى عليهم الناشرون لتوقيع العقود بعقلية الوسطاء التجاريين، والوكلاء لأصحاب رؤوس الأموال. فهم الناشرون والموزعون والمعدون لصناعة الكتاب، خاصة وأن النشر الثقافى المستقل يعانى من أزمة التأليف والطباعة والنشر نظرا لغلو أسعار مواد الطباعة وتكاليفها وبطء عائدها ومطاردة العلماء لهم لدفع حقوقهم والتهرب منهم.

فى هذه الأوضاع، المال لا يصنع ثقافة. فالثقافة ليست ترجمة وطباعة ونشر مجلدات فخمة لا يقرؤها أحد، توزع هدايا لعلية القوم وأصحاب رؤوس الأموال. وتوضع زينة فى المكتبات العامة والخاصة. الثقافة أحد عوامل نهضة الشعوب وتقدم الأمم إذا كانت تعبيرا عن واقعها وتلبى حاجاتها فى المرحلة التاريخية التى

تمر بها. ودون تحليل هذه المطالب والاحتياجات تظل الثقافة نخبوية عالمة لا تحرك ساكنا. مهمة الثقافة فى مناطق تراكم عوائد النفط هى الدفاع عن لغتها الوطنية، وعروبتها، بتعريب العمالة الوافدة والمحافظة على تجانس سكانها وثقافتها الوطنية والتخطيط لمستقبلها القومى.

الثقافة جزء من وجود الدول ذاته. فإذا ما هددته المخاطر الداخلية أو الخارجية تحولت الثقافة إلى أداة دفاع ومقوم وجود. ومنذ أن احتمت الأمة بالقومية العربية فى القرن الماضى كبديل عن الدولة العثمانية، وهى الآن تحتمى بالدولة القطرية بعد هزيمة يونيو- حزيران فى ١٩٦٧ وحرب الخليج الأولى فى ١٩٨٠ والثانية فى ١٩٩٠، تواجه الدولة القطرية الآن مخاطر التفتيت والتجزئة إلى دويلات طائفية عرقية مذهبية كما يحدث الآن فى العراق والسودان. هنا تأتى الثقافة الوطنية التى تنصهر فيها الأعراق والطوائف والمذاهب كقارب نجاة.

وفى العالم ذى القطب الواحد، واستئساد الولايات المتحدة وإسرائيل به بعد غزو أفغانستان والعراق وكل فلسطين، لن يُسمح بوجود قوة أخرى عسكرية واقتصادية وعلمية كما حدث فى العراق أو قوة مالية فى مراكز تراكم ثروات النفط. فكيف تترك الذئاب والأسود غزالا يتمختر أمامها بالحداثة والعصرية ومركز اتصالات بين الشرق والغرب؟ الخوف على هذه الثروات المتراكمة من انهيار العملات الأجنبية كما حدث فى جنوب شرق آسيا منذ عقد من الزمان أو مصادرة الودائع فى البنوك الأجنبية كما يحدث الآن لكل من يخرج على بيت الطاعة الأمريكى مثل إيران بتهمة النووى، ومثل المنظمات الأهلية الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية بتهمة الإرهاب أو بتدمير الآبار فى حالة عدوان أمريكى إسرائيلى على إيران، والآبار فى مرمى الصواريخ من كل الجهات للقضاء على قوة مالية متنامية قادرة على شراء أصول الشركات الصناعية الكبرى فى مجموعة الثمانية.

وبعد حصار مصر وتهديد أمنها القومى فى الشمال وفى الجنوب، فى فلسطين وفى السودان يصبح الوطن العربى كله لقمة سائغة لمن يشاء القضم والهضم.

ليست مهمة المشاريع الثقافية، الترجمة أو غيرها، توزيع بعض عوائد النفط لديكور ثقافى من مظاهر الحداثة فى الدولة الريعية بل الحرص على وجود الدولة ذاتها عن طريق الأمن الثقافى. ليست الغاية من البرامج الثقافية والمهرجانات الدولية للفنون توزيع البيض الذهبى على المشاركين بل المحافظة على الدجاجة التى تبيض ذهبا. ليس الهدف من النشاط الثقافى توزيع الألبان من البقرة الحلوب بل المحافظة على البقرة ذاتها من الذبح أو الاستغلال فى تدوير السواقى وطواحين الإنتاج الغربى. ولماذا التضحية بالآجل فى سبيل العاجل؟ لماذا التضحية بالصالح العام من أجل المصالح الخاصة؟ لماذا تكون الثقافة عالمة وافدة وليست وطنية مقاومة؟ لماذا يكون رأس المال بلا وطن وهو قادر على الحفاظ على الأوطان؟